سفينة نجاة (رواية)

عنوان الكتاب: **سفينة نجاة (رواية)**
اسم المؤلف: **عمرو علاء الدين**
البريد الإلكتروني للمؤلف:
الترقيم الدولي (ردمك/ ISBN): 978-9969-602-21-0
الأبعاد: 20/14 سم
عدد الصفحات: 120 صفحة
صادر عن دار أثر للنشر والتوزيع -الجزائر-
رقم السجل التجاري: 22 أ 1207182- 05/00
العنوان: حي الشهداء 29 ممرات مزوجي عمر بالقرب من الأمن الحضري الخامس، قسم 100 مجموعة ملكية رقم 167 الطابق الأول بلدية باتنة ولاية باتنة (الجزائر).
البريد الإلكتروني للدار: **dar.athar005@gmail.com**
الهاتف: 033.28.37.95
المحمول/ واتسآب: (213+)06.59.63.04.67

Dar Athar
دار أثر للنشر والتوزيع

Dar.athar005

المالك والمدير العام لدار أثر: المهندسة المعمارية الشيماء ضيافي
الطبعة الأولى: سبتمبر 2025
الإيداع القانوني: 2025/09

عمرو علاء الدين

سفينة نجاة

(رواية)

دار أثر للنشر والتوزيع -الجزائر-

أثر الضاد لا يزول

لا تقرأ هذا الكتاب

نعم، أغلقه لأنك لن تخرجَ منه كما كنت... لأنك ستنسى أن هذا مجرد حبر على ورق، ستظن أنك عشت فيه... وأنه عاش فيك. هذه ليست قصة عن الحب وليست عن الحرب بل عن كل ما حدث "قبل" أن تبدأ القصص التي تعرفها..

في زمانٍ لا يسجل على الخرائط، وفي قرى لا يجرؤ التاريخ أن يكتب أسماءها، كانت "هي" تهمس ضد العالم، بصوت لا يُسمع إلا لمن يئنُّ مثله. لم تكن تريد أن تُغيّر العالم...كانت فقط تبحث عن زاوية لا يخنقها فيها الهواء.

ليست كل القرى تُولد في النور، وليست كل النساء يُولدْنَ ليرقصن في الضوء. في مكانٍ منسيٍّ على أطراف الجبال، تدعى **أرنايا**، لا تشرق الشمس إلا لتكشف المزيد من الظلم؛ تنام الجبال على صمتٍ موحش، وتتنفّس الأرض قصصًا لا تُروى. هنا، حيث لا تصل قوانين المدن، ولا كُتب المدارس، وُلدت نساء لا يُسمح لهن أن يحلمن، ولا يُسمح لهن أن يرفعن رؤوسهن حتى في الخيال.

في أرنايا، لا تملك المرأة صوتًا وفي مجلس القرية، مقاعدها شاغرة منذ الأزل، وفي سجلات الإرث، اسمها لا يُكتب، وفي دفاتر الزواج، تُباع

وتُشترى كأنها جزء من الصفقة، وفي أحاديث الرجال، تُذكَر على استحياء، كمن يذكر لعنة يخاف أن تتكرر.

أمي كانت واحدة من هؤلاء. امرأة ذات قلبٍ يتسع لقريةٍ كاملة، وجسدٍ أنهكه الصمت. وأبي؟ لم يكن رجلًا بالمعنى الكامل. كان خائفًا مِثلها، لكنه اختار أن يكون جلّادًا بدل أن يكون حليفًا.

كنتُ أراقب كل ذلك وأنا صامتة. طفلة بقدمين حافيتين، تقف خلف الستائر، تشهد ما لا يُفترض أن تشهده. أحفظ صراخ أمي الذي لا يسمعه أحد، وأدوِّن نظرات الخضوع في عيون نساء الحي، وكأنها أناشيد ورثناها منذ آلاف السنين.

لو كنتُ رجلًا... لكنتُ جلستُ على كرسيّ المجلس، ونطقتُ باسم أمي، وأعطيتها إرثها. لكنتُ صرخت في وجه الشيخ الذي خطبني وأنا لم أبلغ الثامنة عشر. لكنتُ قاتلت لا لأحكم، بل لأحرّر؛ لكنني وُلدت أنثى... في زمانٍ لا يرحم، ومكانٍ لا يعترف بوجعي.

عندما بلغ عمري سبعة عشر عامًا، بدأوا يتحدثون عن الزّيجة... الليلة التي تُسلَب فيها حريتي تحت غطاء الشرع والتقاليد. شعرت أنني لن أكون بعدها أنا. كُنت أعلم أن الجدران ستضيق، وأنفاسي

ستُسرق، وذاكرتي ستُختطف، ولن يتبقى مني سوى جملة يقولونها في الحي: "صارت زوجة فلان."

وفي تلك الليلة، حين جلس الجميع يحتفلون بزيجتي المرتقبة، كنت وحدي أخطط لشيء مختلف. لم يكن الهروب هروبًا من الزواج فقط، بل كان ثورةً على كل تاريخي. ثورةٌ على الخنوع، على الصمت، على ورقة الميلاد التي كُتب فيها أنني "أنثى" فقط.

كان الهروب إلى المجهول أكثر شرفًا من البقاء في السجن المعروف. سأهرب، نعم... لكن إلى أين؟ وكيف؟ ومن سأكون هناك؟ كل هذا لم أكن أعلمه. لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا: لن أكون كمن سبقني.

الفصل الأول: شرارة الهروب

لم يكن الهروب مجرّد فكرة تائهة، بل نارًا تحت رماد. لارين لم تكن تعرف متى بدأ كل شيء بالضبط... ربما حين رأت دمعة أمها تسقط دون أن تجرؤ على مسحها، أو حين وقف والدها أمام الباب يعلن: "زواجك بعد شهر".

هي لم تكن مستعدة لا للزوج، ولا للعبودية، ولا للمصير المجهول الذي ينتظرها كأنثى وُلدت في المكان الخطأ. في قرية "أرنايا"، المرأة لا تُسأل، بل تُؤخذ.

ذات ليلة، وبينما كانت ترتجف وحدها خلف الستارة، تذكرت كتابًا قديماً كانت جدتها تخبئه في وسادتها. لم يكن فيه الكثير، مجرد حكايات عن مدينة بعيدة... مدينة يتنفس فيها الناس حرية، والنساء لا يُزوجنَّ إلا بإرادتهن. لم تصدق كل ما قرأت، لكنها آمنت أن شيئًا آخر ممكن. فأصبحت تلك الصور المبعثرة بذرة صغيرة في قلبها، تنمو في الظلام.

لم تكن لارين تعرف الطرق، لم تغادر أرنايا أبدًا. لكنها عرفت أن التجار وحدهم من يأتون ويذهبون بحرية. بدأت ترصدهم من بعيد...

توقيت قدومهم، وجوههم، طريقتهم في الحديث، وفي تلك اللحظات المبعثرة، بدأت ملامح الخطة تتشكّل.

الليل أهدأ مما يجب... والبيت كله نائم. قلبها ينبض كما لم ينبض من قبل. في يدها كيس صغير: ثوب إضافي، قطعة خبز، وسكين صغيرة خبأتها قبل أيام. اقتربت من الباب، ثم تراجعت. ثم تقدّمت.

همست: "إذا لم أهرب الآن، فلن أهرب أبدًا"...

كان هذا القرار بمثابة إعلان حرب على القرية، على الخوف، على القدر.

خطوتها الأولى لم تكن على الأرض فقط... بل على طريق لن تُعرف نهايته أبدًا

الفصل الثاني: ظل لا يُشبه الآخرين

الظلام لم يكن فقط حولها... بل فيها، لم تكن خطواتها فوق تراب القرية، بل فوق قرارٍ لا عودة منه. تركت كل شيء خلفها: بيت والدها الصامت، أمها المريضة، الأخ الذي لم يولد، وصوت الجدة الخافت وهي تقول ذات مساء: "الخلاص أحيانًا لا يأتي من السماء، بل من أقدام تسير في المجهول".

سارت لا خريطة، لا رفيق، فقط الخوف كظلٍ طويل يلتصق بها.

كانت تعرف شيئًا واحدًا: في الجهة الأخرى، مدينة. وفي المدينة، لا أحد يعرف اسمها. لا أحد ينتظرها لتُطبِق عليه أعين الأعراف والعهود.

خُطتها كانت الهروب خلف قافلة تجار، التخفي في مؤخرة عربة حتى تعبر الحدود. لكنها لم تكن متمرسة، وحين تسللت في العتمة إلى إحدى العربات، اكتشفها أحدهم.

-"أيتها الكلبة، ما الذي تفعلينه هنا؟"!

صرخ أحد التجار وهو يشدها من ذراعها، فسقطت على الأرض الطينية، جلدها يُمزق، رئتاها تختنقان بالخوف.

بدأوا يشتمونها، أحدهم رفع يده ليضربها، وآخر لوّح بعصًا، لكنها انتفضت، وجرت بكل ما تبقى فيها من رمق.

ركضت بين الأشجار كغزالة مذعورة، والدم ينزف من ساقها، وصوت مطاردوها يعلو خلفها... لكنها لم تكن تسمع إلا نبض قلبها : أهربي، أهربي، أهربي...

تعثرت بين جذوع الأشجار، وسقطت في بقعة طينية قرب جدول ماء ضحل لم تعد قادرة على الحركة، عيناها نصف مغلقتين، والظلام يزحف إلى أطراف وعيها.

خطوات اقتربت منها، لكنها لم تملك القوة حتى لتدير رأسها، وصوت امتزج بين الخشونةِ وبعض النُعومة، لكنه كان غريبًا في لطفه، همس:

-"هل أنتِ بخير؟"

رأته ضبابيًا... كان شابًا ذا ملامح ساكنة، عينين واسعتين تُشعان بالتساؤل لا بالاتهام، ويدًا تمتد لا لتؤذي، بل لتساعد.

-"لا تخافي... لن أؤذيك".

قالها وهو يمزق جزءًا من قميصه ليبدأ بلفه حول جرح ساقها النازف.

همست بشفاه جافة:

-"من... أنت؟"

-"اسمي يازِن".

أجاب، وهو ينظر خلفه ليتأكد أن أحدًا لم يره.

-"وعلى ما يبدو... مصيرك التقى بمصيري في لحظة لا يُشبهها شيء".

حملها على ذراعيه برفق، وتسلل بها إلى كوخٍ صغير مهجور داخل الغابة، بعيدًا عن أعين الرجال الذين ما زالوا يُطاردونها.

في الكوخ، أشعل شمعة خافتة، وسقاها جرعة ماء من قنينة جلدية، ثم قال:

-"أعرف أني غريب عنكِ... لكنني لست مثلهم لو عادوا الآن ورأوكِ، لن يرحموكِ. علينا أن نبقى هنا الليلة. وغدًا... نقرر كيف نكمل".

كانت تنظر إليه بصمت، لا تُصدّقه تمامًا، لكنها لم تجد في عينيه شيئًا يُشبه القسوة.

في تلك اللحظة، لم تكن لارين بحاجة إلى مدينة، ولا كتاب، ولا حتى حرية... كانت تحتاج فقط إلى مأوى، إلى اسم... إلى صوت يقول لها للمرة الأولى: "أنتِ آمنة".

الفصل الثالث: ظلال النار

لم تكن تعرف إن كانت تلك النار الصغيرة تدفئها... أم تكشف ما تحاول إخفاءه.

جلست "لارين" على قطعة قماش خفيفة، تراقب لهب الشمعة المائلة، بينما يازِن يُعدّ لها شايًا دافئًا في إناء معدني قديم. لم تسأله كيف وصل في الوقت المناسب، ولماذا ساعدها دون أن يعرفها. لكنها كانت تشعر بشيء أغرب من الطمأنينة... شعور بأن هذا الرجل يعرف أكثر مما يقول.

-"أنتِ من أرنايا؟" سألها بنبرة حيادية.

-"نعم"... ترددت، ثم أضافت:

-"أو... كنتُ منها".

-"وهل تركتها لأنك أردتِ الحياة... أم لأن الحياة تركتكِ؟"

سكتت لم يكن سؤالاً عاديًا. كان كأنه يعرف الإجابة مُسبقًا.

-"ربما كلاهما".

ابتسم قليلًا، ثم قال وهو يصبُ الشاي في كوب صغير من الخشب:

-"لا أحد يهرب من دون سبب... لكن ليس كل من يهرب يعرف إلى أين سيصل".

أخذت منه الكوب بيد مرتجفة، وارتشفت قليلاً. الحرارة لسعت لسانها، لكنها لم تشكُ.

قالت بعد صمت:

-"كنت أظن أني وحدي. أنَّ لا أحد يصدق أن امرأةً قد تهرب من قدرٍ لم تختره".

رفع يازِن بصره إليها في نظرة طويلة، حادة، لكنها دافئة.

-"وهل تظنين أنكِ أول من فكّر في ذلك؟" أضاف بصوت خافت:

-"ميرسال... المدينة التي تحلمين بها، ليست جنة. لكنها على الأقل... تترك لكِ حق الحلم".

ارتجف قلبها عند سماع الاسم.

-"أنت تعرف ميرسال؟"!

-"سافرتُ إليها، وخرجتُ منها... مرّتين".

-"وكيف كانت؟"

ابتسم، لكن ابتسامته كانت حزينة:

-"سأدعكِ تكتشفين ذلك بنفسك... إن كنتِ ما زلتِ ترغبين بالذهاب".

صمتت للحظة، ثم سألت:

-"ولماذا ساعدتني؟"

هنا تغيّرت ملامحه. رمقها بنظرة عميقة وقال:

-"لأنني رأيتُ في عينيكِ نفس النظرة التي كانت في عيني أختي... قبل أن يأخذها رجلٌ لم يختره قلبها".

هنا، خنقها شعور جديد. لم يعد الخوف هو المسيطر. بل امتنان حاد، وترددٌ مريب... هل تثق بهذا الرجل؟ هل تستطيع أن تسلمه مصيرها، بعدما فرّت منه لتوّها من رجالٍ آخرين؟

فجأة، قاطع تفكيرها صوت حاد من بعيد...صهيل خيول... أقدام تقترب... ضوء مشاعل يخترق الغابة.

يازِن نهض بسرعة.

-"تبًّا... لم يبتعدوا كثيرًا. عليّ أن أخرجكِ من هنا قبل أن يشمّوا أثرك".

-"لكن كيف؟"!

-"ثقي بي، لارين. من هنا تبدأ المغامرة الحقيقية"...

أمسك يدها بقوة، وسحبها معه نحو زاوية مظلمة في الكهف، حيث لوح صخري كبير ينفتح على نفق خفيّ لم تره من قبل...

وخطت لارين أولى خطواتها نحو المجهول، من يد رجل غامض... إلى مصيرٍ لا يشبه شيئًا عرفته يومًا.

الفصل الرابع

غاصت قدمها في أول خطوة داخل النفق الرطب، والهواء تغيّر فجأة صار أكثر برودة، كأنه يخرج من رئتين حجريّتين لا تنبضان بالحياة.

اللوحِ الصخري خلفها انغلق بصوتٍ مكتوم، كما لو أن الجبل ابتلع سره من جديد.

تشبّثت "لارين" بكفّ "يازِن"، عيناها تتأقلمان ببطء على عتمةٍ لا يشقّها سوى ضوء خافت من شعلة صغيرة أوقدها بسرعة.

-"سرنا الآن تحت الجبل نفسه..." قالها وهم يبدؤون الزحف في ممرّ ضيق، يعلو وينخفض كأنه شريان أرضيّ. كانت خطواتها ترتطم أحيانًا بالجدران الصخرية، لكنها لم تتوقّف، فصوت الخيول في الخارج لا يزال يلاحق ذاكرتها.

كل شيء هنا كان صامتًا... إلا أفكارها. "مَن هو هذا الرجل؟ لماذا يساعدني؟ هل يعرف عني أكثر مما يقول؟ ولِمَ لم أسأله من البداية... من أرسله؟"

لكنها لم تتكلم.

نظر إليها "يازِن"، كأنه سمع أفكارها، وقال بصوتٍ هادئ:
-"لا تضيّعي قوتكِ في الشك. هذا الطريق لا يفتح إلا مرةً واحدة... اختاري: ثقة أو هلاك".

هنا فقط، شعرت لأول مرة بأنها بالفعل دخلت شيئًا لا عودة فيه...

بعد ما يقارب نصف ساعة من السير، بدؤوا يسمعون خرير ماء. زاد الصوت تدريجيًا، حتى لمحوا أمامهم فراغًا صغيرًا تتدلّى فيه جذور من السقف، ويتوسّطه جدولٌ رفيع من الماء النقيّ.

ركع "يازِن" وغسل وجهه، ثم ناولها القربة وقال:

-"اشربي... هذا الماء أفضل من نهر أرنايا نفسه".

ارتشفت قليلاً، وكان الماء باردًا كأن جبالًا ذابت فيه. جعلها هذا تدرك كم كانت عطشى، لكنّها لم تنتبه لذلك حتى الآن.

جلست على حجر مستوٍ، تنظر حولها... هنا، وسط الظلمة، والبرد، وضيق الممر، شعرت بشيء لا يُفسَّر... كأنها وُلدت من جديد.

قالت بصوت خافت: -"في أرنايا، كل شيءٍ كان ضيقًا... ليس المكان، بل الحُكم".

صمتت، ثم أضافت:

-"هناك، المرأة لا تهرب فقط من الرجال... بل من نفسها أيضًا".

أومأ "يازِن"، ولم يقاطعها.

أكملت: -"كنت أظنّ أنني ضعيفة. لكنّي اليوم لا أعرف من أنا".

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

-"الذين لا يعرفون من هم... هم الأكثر قدرة على أن يصبحوا ما يشاؤون".

...

عادوا للسير مجددًا. الطريق بدأ يصعد ببطء، مما يعني أنهم يقتربون من مخرجٍ ما.

فجأة، توقّف "يازِن." رفع يده أمامها وأشار إلى صخرة ملساء.

همس: -"اسمعي... لا تتحركي".

أرهفت سمعها، فسمعت صوتًا... لا يشبه الخيول هذه المرة. كان أنينًا... بشريًا.

اقترب يازِن ببطء من الجدار، ودفعه بحذر، فانفتح على غرفة جانبية صغيرة... وفي الزاوية، كانت هناك جثة.

رجلٌ مُلتحٍ، ممدّد على الأرض، وثيابه ممزقة، وملامحه تدل على أنه فارق الحياة منذ ساعات فقط.

شهقت "لارين"، لكن "يازِن" سحبها بسرعة وأغلق الممر.

قال بصوت خافت، لكن حاد: -"لسنا وحدنا... شخصٌ آخر مرّ من هنا قبلنا. وترك خلفه... صمتًا ميتًا".

نظرت إليه برعب: -"أكان مَن قتل هذا... لا يزال في النفق؟"

أجاب دون أن ينظر إليها: -"أرجو ألا يكون كذلك".

سحبها مجددًا. هذه المرة، أسرع في خطواته، ولم يعد يتحدث.

الرحلة في هذا النفق، الذي بدا في البداية هروبًا، تحوّلت إلى سؤالٍ جديد: هل الهروب طريقٌ للنجاة... أم للضياع؟...

وفي نهاية الممر، لاح لهم الضوء من جديد. لكن هذه المرة، لم يكن ضوءًا طبيعيًا... بل نارًا تشتعل في كوخٍ بعيد، والدخان يتصاعد في السماء.

التفت إليها "يازِن"، وقال بصوتٍ غامض:

-"تأهّبي يا لارين... يبدو أن المجهول قرر أن يسبقنا".

وقفت "لارين" أمام باب النور... لكنه لم يكن خلاصًا كما تخيّلت. رائحة الدخان تسلّلت إلى رئتيها قبل أن تبصر النيران. كوخٌ مشتعل في البعيد، وسماءٌ تمزّقها سحب داكنة، كأنها تحذّرها من عبورٍ آخر.

التفتت إلى "يازِن"، تبحث في ملامحه عن أي طمأنينة... لكنه كان يحدّق في الأفق، كأنما يرى فيه شيئًا لا تراه هي.

قال دون أن يلتفت: -"ما ينتظركِ في الخارج... ليس أهون مما تركتِه خلفكِ".

ثم أضاف بعد صمت ثقيل:

-"لكن الفرق الوحيد... أن الخيار الآن صار لكِ".

رفعت نظرها نحو السماء، ورأت طائرًا أسود يحلّق بعيدًا، يقطع الفجر الذي لم يطلع بعد... وفي قلبها، كان شيء ما ينكسر، وشيء آخر... يولد.

الفصل الخامس

اقتربت "لارين" من الكوخ المشتعل بخطوات بطيئة، كأن الأرض نفسها صارت ثقيلة. لم تكن النار عاتية، لكنها كانت كافية لابتلاع ملامح المكان، وتحويل الخشب إلى أشباحٍ تتلوّى في العتمة.

-"كان هذا الملجأ"...

قالها "يازِن" بصوت مكسور، وهو ينظر إلى السقف المتهاوي.

-"هل أحدهم سبَقَنا؟"

سألت لارين، وهي تحاول تغطية أنفها من الدخان.

-"لا أحد غيرنا يعرف الطريق. هذا الكوخ مخفي عن الخرائط، عن الناس... حتى عن الذاكرة".

ركض نحو الجانب الخلفي، وراح يزيح بقايا خشب متفحّمة. وبعد لحظات، سحب من تحت الركام صندوقًا معدنيًا صغيرًا، احترقت أطرافه لكنه ظلّ مغلقًا.

نظر إليها بجدّية، وقال:

-"كنا نخبئ في هذا الصندوق أشياء لا يجب أن تقع في الأيدي الخطأ".
فتح الغطاء...

داخل الصندوق، وُجدت خريطة صغيرة مطوية، وقبضة خنجر قديم، ورسالة قصيرة مكتوبة بخط مائل.

أخذت "لارين" الورقة، وبدأت تقرأ بصوتٍ متردّد:

"إلى مَن يجد هذا الصندوق، إن وصلت إلى هنا، فأنت إما أذكى من الصيّادين، أو أكثر يأسًا من الفارّين. الطريق إلى ميرسال ليس على الأرض... بل تحتها. واتّبع العلامة الحمراء إن أردت أن ترى الحقيقة... لا الحلم".

سكتت، ثم همست:

-"تحت الأرض؟... ألم نخرج للتو من تحتها؟"

أجاب "يازِن" بعينين تضيقان:

-"هذا يعني أن الطريق الذي سلكناه... لم يكن إلا المدخل الأول. الرحلة الحقيقية لم تبدأ بعد".

اقتربت منه وسألته:

-"وما هي العلامة الحمراء؟"

نظر حوله، ثم صمت للحظات كأن ذاكرة ما استيقظت فيه.

-"في الغابة. بين الأشجار القديمة. كانت هناك صخرة عليها رسمٌ بدمٍ قديم. كنا نسمّيها *عين ميرسال*. لكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها... لأنهم يقولون من يراها، لا يعود كما كان".

ابتلعت "لارين" ريقها بصعوبة. ثم قالت، بشجاعة ممزوجة بخوف:

-"دلّني إليها. أنا لم أهرب من قدرٍ لأقف عند خرافة".

ابتسم "يازِن" لأول مرة منذ ساعات، وقال:

-"أخيرًا... بدأتِ تُشبهين مَن تكونين".

تحركا نحو الغابة. الضوء بدأ يتسلل بين الأغصان، لكن شيئًا في الجو تغيّر...كأن الطبيعة نفسها تراقبهما.

وفي أثناء السير، أحسّت "لارين" بشيء يلمع بين الأشجار. ركضت نحوه بخفّة، حتى وقفت أمامها:

صخرة سوداء، محفور عليها شكل عين بشرية، وخط أحمرٌ يمتد منها نحو الأرض.

شهقت.

فقد كان الدم ...طازجًا.

صرخت بصوت خافت:

-"يازِن... هذه العلامة لم تُرسم منذ زمن. إنها... الآن فقط"!

اقترب منها بسرعة، وعيناه تتسعان:

-"هذا مستحيل... لا أحد يعرف هذا المكان... إلا"—

توقّف فجأة، ونظراته تصلبت.

قال هامسًا:

-"يا إلهي... هذا فخ. نحن لم نصل قبلهم... بل دُفعنا لنسلك هذا الطريق".

نظرت إليه وقد بدأت الأشجار من حولهما تصدر أصواتًا غريبة... كأن الغابة نفسها تستعد للانقضاض.

لم تكن "لارين" تعرف من ينتظرهم هناك، ولا ماذا تُخبّئ الصخرة، ولا من رسم الدم الذي ما زال طريًّا...

لكنها أدركت شيئًا واحدًا فقط، شيئًا لم تُدركه حين هربت من أرنايا، ولا حين أمسكت بيد رجل غريب داخل نفقٍ غامض...

أنّ من يهرب من قدرٍ واحد... قد يسقط في قدرٍ أسوأ

الفصل السادس: بين ظلّين.

لم يتكلّم أحد منهما طيلة نصف الساعة التالية. كانا يسيران بسرعة وسط الغابة، يبتعدان عن الكوخ المحترق، وعن الصخرة الغامضة، وعن الرجل الذي ظهر ثم اختفى كأنه حلم أو تحذير من المجهول.

لارين كانت تحاول تنظيم أنفاسها، بينما صوت كلمات الرجل الغامض يعود في ذهنها: "الخوف الأول... ليس الأسوأ، بل أول من أخافك".

كانت الجملة تُربكها، لأنها شعرت وكأنها قيلت لها قبل سنوات، لا قبل دقائق.

-"هل تعرف مَن كان ذلك الرجل؟"

سألت أخيرًا، بصوت منخفض وهي تمشي خلف "يازِن."

-"لا".

أجابها دون أن يلتفت.

ثم أضاف: -"لكن إن كان ما رأيناه حقيقيًا... فمعناه أننا لم نعد وحدنا في هذا الطريق".

ترددت، ثم سألته: -"هل تظن أن أحدًا أرسلَه؟ أبي؟ الحُكّام؟"

هزّ رأسه وقال: -"إن كان والدك هو من أرسله، لَما تركنا نخرج أحياء.
لا... هذا مختلف".

نظر حوله، أشار نحو جذع شجرة مجوّف، ودخل فيه قليلاً ليتفحّص الأرض.

-"هنا... سنختبئ هذه الليلة".

اعترضت: -"في قلب الغابة؟"!

-"أفضَل من البقاء مكشوفين. وغدًا مع الفجر، نتابع الرحلة إلى الضفة الشرقية. لكن الليلة... نحتاج أن نفهم ما حدث".

بعد قليل، جلسا داخل التجويف الخشبي، تلفّهما رائحة الطين والندى والليل. أشعل "يازِن" شعلة صغيرة، وبدأ يُقلب الخريطة التي أنقذها من الكوخ. أشار بإصبعه:

-"نحن هنا الآن... حسب الخريطة، هناك ممر صخري يقود إلى وادٍ قديم، مهجور، لا تستخدمه دوريات أرنايا، لأن الأرض هناك غير مستقرّة".

-"وماذا في الوادي؟"

-"بئر... قديم، مهجور. لكنه ليس عاديًا. يقال إن من يُسقط فيه حجرًا... يسمع صوتًا يردّد اسمه. بعضهم يقول إنها بئر تبتلع الذاكرة".

نظرت إليه بشكّ: -"أسطورة أخرى؟"

ابتسم لأول مرة منذ ساعات:-"ربما. لكن تحت هذا البئر، هناك ممرّ سري... سيأخذنا إلى الجهة الأخرى من النهر، دون أن يرانا أحد".

صمتت قليلاً، ثم سألت بصوتٍ أضعف:

-"هل تظن أن الرجل الذي رأيناه... سيتبعنا؟"

-"لا أعرف. لكن إن كان هو من أشعل الكوخ... فقد أراد أن نراه. ربما ليُرهبنا، وربما ليُرسل رسالة".

-"وأي رسالة قد تكون؟"

أجاب بعد تردد: -"أنتِ لستِ وحدكِ، يا لارين. ربما هناك من يراقبك منذ زمن... ليس ليؤذيك، بل ليمنعك من الوصول إلى ميرسال".

شعرت بدمها يتجمّد.

قالت وهي تقبض على القلادة القديمة: -"لكن لماذا؟ ما الذي يمكن أن يكون هناك؟ مجرد مدينة؟"

هزّ رأسه ببطء، وقال بصوتٍ خافت:

-"ميرسال يا لارين... ليست مدينة فقط. إنها الحكاية التي حاولوا دفنها، المكان الذي ما زال يحمل ذاكرة النساء... اللواتي لم يُكملن قصصهن".

وبينما كانت "لارين" ترتّب غطاءها الصغير داخل التجويف، نظر "يازِن" إلى السماء الرمادية بين أغصان الشجر، ثم قال:

-"غدًا نغادر قبل شروق الشمس. سنعبر الوادي... ونجد البئر".

سألته وهي تربط شعرها للخلف: -"أنت متأكد أن الطريق ما زال صالحًا؟"

-"لا.

لكننا لم نعد نملك طريقًا غيره".

صمتت قليلًا، ثم قالت: -"أنا لم أعد أريد الوصول إلى ميرسال كحلم... بل كحقيقة. ماذا أفعل إن كانت الحقيقة أسوأ من الحلم؟"

التفت إليها، وقال بوضوح:

-"تُكملي الطريق. الذين لا يُكمِلون الحكاية... يُصبحون جزءًا من حكايات الآخرين".

أسندت رأسها إلى جذع الشجرة، تغالب تعبًا لم يعد في الجسد فقط... بل في القلب.

سمعت صوت الليل يهمس في أذنيها، كأنه يردد: "إن وصلتِ إلى الضوء، فلا تنسي الظل الذي كنتِ فيه".

أغلقت عينيها أخيرًا، و"يازِن" كان قد جلس قرب المدخل، خنجره في يده، وعيناه لا تنامان.

الفجر لم يحن بعد... لكن الرحلة كانت قد بدأت فعلًا.

الفصل السابع

كان الفجر قد بدأ يتسلّل بين الأشجار حين فتح "يازِن" عينيه. لم يكن قد نام، بل غفا دقائق متقطعة، والسكين ما زال في قبضته، والقلق مشدود في عضلاته.

أيقظ "لارين" بهدوء، وهمس: -"حان الوقت".

فتحت عينيها ببطء، ورفعت جسدها المتعب.

-"هل نامت الأرض؟"

ابتسم قليلاً، وقال: -"إن كانت تراقبنا، فربما توقفت لتغمض عينًا واحدة فقط".

لم يتبادلا الكثير من الكلمات. كان هناك صمتٌ خاص في ذلك الصباح، صمت الذين يعرفون أن الخوف لم ينتهِ، لكنه الآن صار جزءًا من الطريق.

سلكا المسار الضيق بين الأشجار، يتبعان علامات قديمة محفورة على الحجارة؛ كانت الأرض تميل تدريجيًا نحو الأسفل، والضوء يضعف كلما اقتربا من فتحة الوادي.

-"أترين ذلك الجرف هناك؟" قال "يازِن" وهو يشير إلى تلٍ صخريّ تعلوه بعض الأشجار المنحنية.

-"تحته مباشرة... هناك البئر".

حين وصلا إلى الفتحة، شعرت "لارين" بوخز غريب في صدرها. كأن الهواء هناك مختلف. أثقل. ولم يكن هناك صوت سوى همس الريح بين الصخور.

وقفا أمام البئر لم يكن كبيرًا، لكنه مظلم بشكل مخيف. مغطّى جزئيًا بحجارة مسنّدة بطريقة بدائية.

قال "يازِن" وهو ينزع صخرة من الحافة: -"ليس كل من دخل هذا الطريق أكمله لكننا لن نتراجع الآن".

أخذ حجرًا صغيرًا، وناول "لارين" إيّاه.

-"ارميه. واسمعي".

ترددت. ثم أطلقت الحجر في قلب الظلام.

الصمت.

ثم...

صوت ارتطام بعيد. كأنه لم يسقط في ماء ولا أرض، بل... داخل شيء يتنفس.

نظرت إليه، واتسعت عيناها.

-"هل... سمعت اسمي؟"

هزّ رأسه، وابتسم بهدوء.

-"كل من يخاف... يسمع صوته في داخله".

نزل "يازِن" أولاً عبر حبال متينة أخرجها من كيسه. كانت هناك سلّمات حجرية متهالكة على الجدار الداخلي، تنتهي بممر جانبي ضيق. -"انزلي خلفي. تمسّكي بالحبل أكثر من خوفك".

نزلت "لارين"، وكل خطوة كانت كأنها تدخل صفحة جديدة من رواية لا تعرف عنوانها. كان الظلام كاملاً، والرطوبة تتسلّل إلى جلدها.

وحين وصلا إلى أرضية الممر، لم يكن هناك سوى جدار واحد أمامهم، محفور عليه رمز قديم: دائرة داخلها عين، وتحتها كلمة باهتة: "ميرسال."

قالت وهي تلمس الحفر: -"كأن أحدهم مرّ من هنا قبلنا"...

-"بل كثيرون. لكن ليس كلهم خرجوا".

أخرج "يازِن" قطعة حجر مستطيلة، كانت مخبّأة في طرف الخريطة. ركّبها في تجويف الجدار، فانفتح ببطء... بابٌ حجري، يؤدي إلى نفق طويل يهبط للأسفل.

وبعد أن دخلا، أُغلق الباب خلفهما تلقائيًا.

التفتت "لارين" بحدة، وصرخت: -"لماذا أغلق؟"!

-"هكذا صُمّم. البوابة لا تُفتح مرتين من نفس الاتجاه".

سكتت.

-"يعني... لا عودة؟"

أومأ برأسه. -"من هنا تبدأ ميرسال".

بدأ النفق يضيق، ويمتد. ورائحة ترابٍ قديم تملأ الرئتين. لكن في عيني "لارين"، لم يكن هذا قبراً... بل نفق ولادة.

ولأول مرة، شعرت أن الطريق ليس للهرب فقط... بل لمواجهة كل ما هربت منه.

وكان صوت الحجر ما زال يتردّد في عقلها... لا يُشبه اسمها، بل يُشبهها.

الفصل الثامن

كانت خطواتهما تتردّد في النفق كأنّ الأرض تحفظها، وتُعيدها خلفهما بأصوات باهتة.

الجدار المحفور كان يضيق تدريجيًا، والسقف يهبط قليلًا قليلًا حتى صار عليهما أن ينحنيا، ثم يزحفان لمسافة قصيرة.

قال "يازِن" وهو يتنفس بصعوبة: -"كل الذين مرّوا من هنا... كانوا غرباء على ميرسال. ولهذا فُتح لهم الطريق من الأسفل، لا من أبوابها".

سألته وهي تمسح جبينها: -"وماذا عنك؟ مررتَ من هنا مرتين، أليس كذلك؟"

-"مرّة خرجت... ومرة عدت. العبور من ميرسال أسهل من الخروج منها".

كان الهواء رطبًا، يحمل رائحة العفن والمعادن القديمة. لكنهما لم يتوقفا.

وفجأة، على الجدار الأيسر، ظهرت رسوم قديمة محفورة، أشكال لنساء بوجوه مشوّهة، وأخرى تحمل أطفالًا بلا ملامح.

وقفت "لارين" تحدق فيها، وأصابها شعور غريب... كأن هذه الوجوه رأتها يومًا.

قالت: -"لماذا وُجد هذا المكان؟"

ردّ "يازِن" بعد تردد: -"لأنه في زمن ما... كانت ميرسال تُخفي الداخلين، وتُخرس أصوات الخارجين. لا أحد يصلها دون أن يمر بالمنطقة الرمادية".

-"أي منطقة؟"

-"المكان بين الحُلم والحقيقة".

بعد ساعة من السير، وصلا إلى فتحة دائرية في الجدار، منخفضة بشدّة، تحرسها بوابة حديدية قديمة، متآكلة، ولكن مغلقة بإحكام.

اقترب "يازِن"، ودفعها بصعوبة، فانفتحت ببطء، وأطلقت صريرًا عميقًا كأنها لم تُفتح منذ سنين.

خلف البوابة... قاعة حجرية مظلمة، في منتصفها طاولة دائرية محفورة من الصخر، وحولها كراسي فارغة... سبعة كراسٍ بالضبط.

همست "لارين:" -"ما هذا المكان؟"

-"كان يُسمى غرفة التذكّر".

-"تذكّر ماذا؟"

نظر إليها نظرة لا تحمل ابتسامة، ولا يقينًا.

وقال: -"كل من يدخل ميرسال... عليه أن يواجه شيئًا نسيَه أو تظاهَر أنه نسيَه".

اقتربت من الكراسي، ومرّرت أصابعها فوق أحدها. ساخن... كأن أحدهم جلس هنا لتوّه.

فجأة... صوت خافت خرج من الجدران.

لم يكن واضحًا، لكن بدا كأنه همسات كثيرة، تتكلم بلغات لا تعرفها.

تراجعت "لارين" بسرعة: -"يازِن... تسمع؟"!

أومأ. -"إنها الذاكرة الجماعية. كل من مرّ من هنا... ترك أثرًا".

قالت، وعيناها لا تفارقان الطاولة:

-"وهل نترك نحن أيضًا شيئًا؟"

أجابها: -"أنتِ فقط، إن قررتِ البقاء".

نظر إلى الحائط المقابل، حيث ظهرت فجأة دائرة ضوء خافتة... باب آخر، لا يُفتح إلا عندما يُغلق الأول.

قال لها: -"اسمعيني، يا لارين. من هنا فصاعدًا... سيتغيّر كل شيء. الطريق بعد هذه الغرفة لا يفتح إلا لمن قرر... أن لا يعود".

سألته: -"هل هناك من لم يُكمل؟"

-"كثيرون... بعضهم عاد أدراجه... وبعضهم ضاع في النسيان".

نظرت إلى الكرسي الفارغ أمامها، وجلست عليه. نظرت في وسط الطاولة، فرأت شيئًا لم يكن هناك قبل لحظة: مرآة حجرية دائرية، لا تعكس وجهها... بل صورة طفلتها الصغيرة. شهقت. ويدها ارتجفت.

قال "يازِن" بصوت لم تسمعه من قبل، كأن شيئًا داخله انكسر:

-"أحيانًا... لا تحتاج المرأة إلى مدينة جديدة. بل إلى أن تتصالح مع صوتٍ قديم بداخلها".

مرّت لحظة صمت طويلة. ثم نهضت "لارين"، ويديها تقبضان الهواء كمن خرج من حلم ثقيل.

سارت معه نحو باب الضوء... وقبل أن تعبر، التفتت للخلف، وقالت كأنها تتكلم لنفسها: "لا أعرف إن كنت أهرب... أم أعود إلى نفسي".

ثم دخلت.

وانغلق الباب خلفهما

.

الفصل التاسع:

كان الضوء يصفع عينيها حين خرجت من النفق. الهواء تغيّر. لم يعد خانقًا مثل الداخل، لكنه لم يكن نقيًّا أيضًا... فيه رائحة دخان قديم، ورماد محروق، كأن هذه الأرض شهدت شيئًا لا يروى.

وقفت "لارين" في فوهة الخروج، بينما "يازِن" يتفحص الأرض.

-"نحن على أطراف ميرسال... لكنها ليست البوابة التي يدخل منها الناس عادة".

سألته: -"ومَن يدخل من هنا؟"

أجاب وهو يتقدم في الطريق الترابي: -"من لا يُريد أن يُرى... أو من لا يُسمح له بالدخول".

المكان الذي دخلاه لا يُشبه مدينة. أرض منبسطة، تملؤها مساكن دائرية منخفضة من الطين والحجر، متصلة بممرات ضيقة كأنها شبكة خيوط مهترئة. لا أبواب حديدية. لا حرّاس. فقط ستائر سوداء تغلق المداخل.

لكن الأعين... كانت كثيرة. تراقب من بين الشقوق. ترى ولا تُظهر نفسها.

قال "يازِن" بصوت منخفض: -"هذه الحافة تُسمى بين أهل ميرسال: بوابة الغبار. لا لافتة، لا قيد، ولا ترحيب. إذا تجاوزتها، فأنت مسؤول عن كل ما سيحدث".

شعرت "لارين" بشيء يتحرك تحت قدمها. نظرت، كان خيطًا أحمر صغيرًا، مربوطًا بصخرة. رفعه "يازِن" بهدوء، ونظر فيه.

-"إشارة قديمة... تعني أن أحدًا عبر هنا منذ ساعات قليلة. لسنا أول من مرّ اليوم".

سألته: -"وهل يمكن أن يكون أحدهم تبعنا؟"

لم يُجب، لكنه أسرع في الخطى.

مع كل خطوة، كانت الجدران تزداد غموضًا: رسوم يدويّة على الطين، ظلال وجوه بلا ملامح، وكتابات بلغة لا تشبه أي لغة عرفتها "لارين."

واحدة منها شدت نظرها:

"كل من دخل دون سؤال... سيُسأل دون إجابة".

قال "يازِن" وهو يوقفها أمام بيت حجري مائل قليلًا: -"هنا ستبقين الليلة. داخل هذا المكان... يبدأ الجزء الذي لا عودة منه".

سألته: -"ألن تبقى؟"

-"إن دخلتُ معك، لن أقدر على الخروج. وأنا... ما زال لي عمل في الخارج".

نظرت إلى الباب. لم يكن بابًا... مجرد ستارة كثيفة من القماش الرمادي، تتدلّى بصمت.

سألته بهمس: -"وهل يعرف أحد أني هنا؟"

تردد، ثم قال: -"المدينة... تعرف. لكنها لا تتكلم".

دخلت "لارين" وحدها. الداخل كان غرفة دائرية، سقفها منخفض، في منتصفها مرآة حجرية دائرية، وعلى الجدار كلمة محفورة:

"القرار."

تقدّمت، نظرت في المرآة...

لكنها لم ترَ نفسها.

رأت كوخًا يحترق. صوت طَرقٍ على باب. صوت طفلة تنادي باسمها.

ثم... سكون. خارج البيت، كان "يازِن" يبتعد بهدوء بين الأزقّة الطينية، لكنه توقف فجأة.

في أحد الأسطح المرتفعة، كان هناك ظلّ يقف بصمت، يراقب، لا يتحرّك.

لم يكن من أهل الأطراف. ولا من العابرين.

"يازِن" شدّ سلاحه، وهمس في نفسه:

"أرسلوا العيون بالفعل... أسرِع مما توقعت".

الفصل العاشر: أول الغياب

كان الصمت في الداخل أثقل من أي صوت سمعته لارين من قبل. لم يكن صمتًا طبيعيًا... بل كأن الجدران تتنفس، لكن دون أن تتكلّم.

وقفت في منتصف الغرفة الدائرية، تتأمل الكلمة المحفورة على الجدار: "القرار".

نظرت حولها... لا باب آخر. ولا مخرج.

فجأة، أدركت أنها وحدها. حقًا وحدها. لأول مرة منذ تلك الليلة في أرنايا، حين فرّت من قدرها، ثم وجدت يازِن... كان دومًا هناك أحد.

لكن الآن...

-"يازِن؟"

صوتها تردّد مرتين، ثم مات. ولا جواب.

اقتربت من المرآة، نظرت فيها. لم تكن ترى وجهها، بل... وجه امرأة تشبهها، لكنها أكبر، أكثر صلابة، وفي عينيها نظرة لم ترها في نفسها من قبل.

همست: -"من هذه؟ أنا؟ أم ما يجب أن أكونه؟"

جلست على الأرض الترابية، ضمت قدميها، وأسندت ذقنها على ركبتيها.

لأول مرة منذ وقت طويل... بدأت تتحدث بصوت مسموع، مع نفسها فقط.

-"أنا خائفة... لكنني وصلت، أليس كذلك؟ لم أمت، لم أُمسك، لم أُقتل. هربت"...

سكتت لحظة. ثم أضافت، وكأنها تحاكم نفسها:

-"لكني لم أهرب وحدي. يازِن ساعدني. من دون أن يطلب شيئًا... من دون أن يعرفني. والآن... تركني".

نظرت إلى السقف، ثم قالت بصوت خافت:

-"هل كان يجب أن أكون هنا؟ هل هذا مكاني؟ أم مجرد محطة قبل أن أضيع أكثر؟"

ثم، بصوت أكثر وضوحًا، كأنها تعلن شيئًا:

-"كل ما أعرفه... أنني الآن وحدي. وهذه الغرفة... تشبهني. لا شيء فيها واضح، ولا شيء فيها مطمئن".

نهضت واقفة، نظرت إلى الجدار، ومدّت "لارين" يدها تتحسس الكلمة المحفورة على الجدار: "القرار."

قالت في نفسها:

-"ما كنتُ أريده قد لا يكون ما أحتاجه. لكن إن كنت سأُحاسب... فلأُحاسب على اختياري".

استدارت، ومشت نحو الستارة السوداء.

فتحتها ببطء، ونظرت إلى الخارج.

النهار بدأ يميل نحو الغروب، والسماء فوق ميرسال اكتست بلون نحاسي غريب، كأن الشمس غاضبة من الغياب.

الأزقة الترابية كما هي... هادئة، ساكنة، لكن فيها شيء تغيّر. كأن أحدهم مرّ من هنا وترك رائحة قرار.

مشَت بخطوات ثابتة، لكن قلبها لم يكن هادئًا. كان يخفق كأن شيئًا ما اقترب دون صوت.

وفي منتصف الزقاق، رأت ظلًّا واقفًا.

رجلٌ طويل، يرتدي عباءة رمادية، لا يقترب... ولا يبتعد.

كانت الريح ترفع أطراف عباءته، لكن وجهه في الظلّ... لا يظهر.

توقّفت "لارين." نظرت إليه. هو لم يتحرّك.

قالت: -"من أنت؟"

لم يُجب. لكنّه رفع يده ببطء، وأشار نحو قلب المدينة. ثم اختفى. نعم... اختفى. كأن الهواء ابتلعه.

نظرت "لارين" في الاتجاه الذي أشار إليه. كانت هناك بوابة خشبية كبيرة، وأصوات بدأت تظهر خلفها: ضحك، موسيقى، وقع أقدام.

صوت الحياة.

ميرسال الحقيقية.

قالت لنفسها:

-"إذا كانت هذه المدينة ستُغيّرني... فلأكن حاضرة حين تفعل".

ثم مشت نحو البوابة، وفي عينيها لمعة مختلفة، ولم تكن تعرف إن كانت تخطو إلى ما تُريد... أو إلى ما لن تُغفر له.

الفصل الحادي عشر: حيرة على أبواب ميرسال

دخلت "لارين" من البوابة الخشبية، والأرض تحت قدميها شعرت كأنها تنتمي لعالم لا يُشبهها. لا أحد بانتظارها. لا "يازِن"، ولا خريطة، ولا حتى فكرة عمّا يجب أن تفعله الآن.

كانت المدينة أمامها مثل بحر راكد، لكن عيونه مفتوحة.

أصوات، ضجيج، حركة مستمرة... لكنها كلها بلا عنوان.

مشت، والناس يمرّون بجانبها دون أن يقتربوا. نظرات قصيرة، حذرة، ثم ينصرفون كأنها وهم.

أرادت أن تلتفت للخلف، أن ترى إن كان "يازِن" واقفًا حيث تركها... لكنه لم يكن هناك. مجرد بوابة أُغلقت. وماضٍ يُغلق معها.

كان شعرها مبعثرًا، وثوبها لا يزال يحمل تراب الغابة. في هذه المدينة، كانت تُشبه شجرة محترقة في حقل أخضر.

لابد أن تختفي، على الأقل... بصريًا.

لمحت واجهة متجر صغيرة في الزاوية. دخلت.

رجل مسنّ، عيناه غائرتان، يراقب دون أن يتكلم.

اقتربت من الطاولة، ثم أخرجت قلادتها من عنقها ببطء.

رفعتها بين أصابعها وقالت:

-"هذه لأمي... لا أملك غيرها. لكن أحتاج ثيابًا... شيئًا يُخفي ملامحي حتى أجد عملًا أو مأوى".

نظر إليها مطولًا. أخذ القلادة كأنها ذكرى قديمة يعرفها. ثم قال دون أن يرفع عينيه:

-"كل الغريبات يبدأن بقطعة من أمّهاتهن... لكن نادرًا ما تعود واحدة لاستردادها".

قالت بثقة متعبة: -"سأعود".

أشار إلى رفّ في الزاوية: -"خذي ما يُخفيك، لا ما يُشبهك".

اختارت عباءة رمادية، لبستها في الزاوية دون أن تنظر في المرآة، ثم خرجت.

في الخارج، أدركت أنها فقدت شيئًا لم تكن مستعدة للتخلي عنه.

لم تكن القلادة فقط... بل رابطها بطفولتها. بأمّها. بأول ما جعلها تشعر أنها تنتمي.

جلست على طرف الرصيف، والمدينة تمشي دونها.

رفعت رأسها، وحاولت أن تتذكر وجه "يازِن."

لكنه ضاع بين الحجارة، كأن المدينة تُذيب الذاكرة كما تُذيب الوقت.

وقبل أن تنهار كليًا، رأتها:

لافتة خشبية مهترئة على باب جانبي:

"نُزل الغرباء"

كأن المدينة تقول: "المنهكون... من هنا".

طرقت الباب.

فتح لها رجل مسن، بوجه لا يحمل ترحيبًا ولا رفضًا.

قال فقط:

-"الغرباء لا يحتاجون إلى أسماء... المدينة تتكفّل بنسيانهم".

فتح الباب.

ودخلت.

الفصل الثاني عشر: المأوى المسموم

دخلت "لارين" إلى النُزل بخطى ثقيلة، كأن كل ما فرّت منه... يلتصق بأسفل قدميها.

كان الباب يئنّ من قِدَمه، والجدران متشققة كما لو أنها تئنّ مثلها.

الرجل المسنّ الذي استقبلها، لم يسأل عن اسمها، لكن نظراته حفرت داخلها شيئًا لم تفهمه.

-"غرفة وحيدة، سرير وحيد، وأنتِ وحدك".

قالها دون أن يلتفت.

صعد السلالم أمامها، وصوت خطواته يشبه طَرقًا على نعش قديم.

تبعته دون اعتراض. لكن داخلها... كان هناك شيء يصرخ.

-"هل أخطأت؟ هل كانت المدينة فخًا؟"

توقفت فجأة.

قالت بصوت منخفض، لكنه عنيد:-"لا أطلب مجانًا. أعمل... أنظف، أطبخ، أي شيء. لكن لا أريد أن أكون عالة على أحد".

توقف هو.

ثم نزل خطوة... نظر إليها ببطء. -"لا أحد هنا يعطي مجانًا. لكن السؤال: "هل تَقدرين على ما ستطلبه المدينة منكِ؟"

لم تفهم... لكنه ابتعد.

وأشار إلى ممر مظلم.

-"المطبخ هناك. ابدئي منه، إذا أردتِ البقاء".

دخلت "لارين" المكان.

الضوء خافت. الرائحة... ثقيلة.

كأن المكان يتنفس أسرار النُزل... ويختزن صرخات لم تُسمع يومًا.

على الطاولة الخشبية، رأت قِدرًا قديمًا، وسكّينًا مبللاً بشيء أحمر. ربما طماطم... وربما لا.

أرادت أن تبدأ، أن تُثبت أنها تستحق البقاء. لكنها شعرت فجأة بشيء خلفها.

استدارت.

باب خلفي نصف مفتوح، ورجل قصير القامة يعبره دون أن ينظر.

كأن النُزل لا ينام... ولا يُغلق أبوابه.

اقتربت من النافذة الصغيرة في الزاوية. نظرت للخارج.

المدينة ما زالت تعجّ بالحياة... لكن "لارين" شعرت أنها سجينة غرفة بلا جدران.

وضعت يديها على الطاولة، ثم انزلقت إلى الأرض ببطء... وجلسَت.

لم تبكِ.

لكنها لم تكن بعيدة عن ذلك.

-"أين أنت الآن، يا يازِن؟ أحقًا... تركتني؟"

وفي لحظة صمت، سمعت الخطوات تعود.

صاحب النُزل... يقف عند الباب.

لكن هذه المرة، لم يكن وحده.

كان هناك ظلّ آخر خلفه.

-"البقاء له ثمن، يا فتاة الجنوب... وأنتِ على وشك أن تكتشفي نوع العمل الحقيقي".

الفصل الثالث عشر

كان يقف عند الباب... الرجل العجوز، وخلفه ظلٌّ لم تتبين ملامحه.

-"البقاء له ثمن، يا فتاة الجنوب"... قالها، ثم رحل.

لكن الظل لم يرحل من عقلها.

لم تُغلق الباب. جلست على حافة السرير، عيناها معلّقتان بالمكان الذي اختفى فيه.

كانت الغرفة باردة، لكن ما ينهشها كان أشدّ من البرد.

سواد في صدرها، وتعب لم يكن جسديًا فقط... بل شيء يُشبه الهزيمة.

نامت جالسة. أو تظاهرت بذلك. كل الأصوات الصغيرة في النُزل كانت مسامير في أذنيها.

ومع أول ضوء رمادي، خرجت من الغرفة كأنها تهرب من شيء لا اسم له.

في الممر، التقت بعينَي صاحب النُزل.

نظر إليها من أعلى إلى أسفل، كأنها نفاية بشرية سقطت من عربة.

-"صباحكِ عمل، إن أردتِ البقاء".

قادها إلى ركن خلفي خارج المبنى.

مرحاض متهالك، أرض موحلة، ورائحة كأنها قديمة بقدم الخطيئة.

-"نظّفي هذا... وبعدها، سنتحدث".

دخلت "لارين"، بيدين مرتجفتين، وبقلب مثقوب بالخجل.

بدأت التنظيف، وكل ضربة ماء كانت صفعة على كرامتها.

-"هل هذا هو مستقبلي؟ هربتُ من الجحيم... لأُغرق نفسي في وحلٍ جديد؟"

لكنها لم تتوقف.

وحين عادت إلى النُزل، سمعت ضحكة منخفضة من إحدى الغرف:

-"انظروا إلى المنفيّة... حتى القذارة وجدت صاحبة".

لم ترد.

صعدت بخطى مكسورة.

دخلت الحمام المشترك. سكبت الماء البارد على جسدها.

لم تبكِ.

لكنها شعرت أن قلبها يغتسل... لا جسدها.

نظرت إلى المرآة. رأت نفسها كما هي:

فتاة منهكة، مشروخة، لكن ما تزال واقفة.

وشيء في داخلها همس:

-"ربما لا أستحق هذا... لكنني لن أنكسر".

الفصل الرابع عشر-الخطأ الذي لا يُغتفر

لم تكن "لارين" تعرف أين تمشي. بعد أن خرجت من النُزل، كانت خطواتها ثقيلة رغم مظهرها الجديد.

ملابسها نظيفة لأول مرة، شعرها الكستنائي يبدو أكثر وضوحًا وسط الرؤوس السوداء التي تملأ شوارع ميرسال. لكن التعب ينهشها.

كانت غريبة عن هذه المدينة.

لم تعرف القوانين. لم تفهم الطقوس.

ظنّت أنها فقط تبحث عن مكان لتأكل، عن عمل صغير، عن مأوى.

لكنها لم تكن تعرف... أنها اقتربت من ساحة لا يُسمح لأحد بدخولها في هذه اللحظة.

في ميرسال، هناك لحظات لا ينبغي فيها لأحد أن يتحرك.

عندما يخرج الأمير إلى المنصة، المدينة كلها تتوقف.

الأنفاس، الكلمات، النظرات.

"لارين" لم تعرف.

كانت تائهة وسط الحشود. اقتربت من عربة مغطاة بأقمشة ثقيلة لتختبئ خلفها.

داسَت قدمها على حبل مشدود.

وانقطع الحبل.

في لحظة واحدة:

سقطت الستارة الملكية قبل موعدها.

وانكشفت منصة الأمير "نايار" وسط صدمة الجميع.

وقطعة التميمة المقدسة—الرمز الذي يعلق لحماية الحكم—سقطت عند قدميها.

المدينة تجمّدت.

الجنود شهَروا السيوف. الناس شهقوا ثم بلعوا أنفاسهم.

الأمير "نايار" لم يقترب.

لم يغضب.

قال فقط:

-"أمسكوها".

الصوت كان باردًا، حادًا، كأنه قرار قضائي لا يقبل النقاش.

الجنود تحرّكوا فورًا. أحاطوا بـ "لارين"، أمسكوا بذراعيها.

لم تقاوم.

لم تصرخ.

في داخلها، شيء بدأ يتكسّر... لكنها لم تعرف هل هو الخوف، أم بداية شيء آخر.

الحشود ظلوا صامتين.

المدينة كلها وقفت على حافة الصدمة

وهكذا انتهت اللحظة... أو هكذا ظنّت "لارين."

لكن خلف جدران القلعة، هناك شيء ينتظرها...

شيء لا يشبه أي قدر تخيّلته.

الفصل الخامس عشر

يازن ابتعد "يازِن"، لكن خطواته لم تكن ثابتة.

صوت الريح يهمس في أذنه... ثم شيئًا فشيئًا صار الصوت أوضح.

لم يكن صوت ريح فقط.

كان هناك شيء آخر. صوت داخلي، يشبه همسًا من روحه نفسها.

"ارجع".

شدّ على قبضته.

"لا".

لكن الصوت لم يتوقف.

"ارجع".

"أنت تعرف أن هذا خطأ".

توقف قليلًا.

التفت حوله.

لم يكن هناك أحد. المدينة تمضي كعادتها. الباعة يصرخون، والخطى تتسابق، ولا أحد يسمع الصوت الذي في رأسه.

"تركتها... لأن هذا هو الصواب".

قالها لنفسه.

لكن الصوت عاد أشد: "تركتها... لأنك جبان".

هنا شعر بشيء ينكسر في صدره.

"يازِن" الذي عاش حياته كلها لا يسمح لأحد بلمس ضعفه... وجد نفسه الآن مكشوفًا أمام صوته الداخلي.

تذكر عينيها وهي تنظر إليه. تذكر الارتجافة في صوتها عندما قالت:

"سأكون بخير".

لكنها لم تكن تعنيها.

الريح عادت تصفر في أذنه. لكن الهمس ظلّ واضحًا:

"تركتها وحدها".

"أختك... تركتها وحدها أيضًا".

قلبه بدأ ينبض بقوة. صور قديمة تعود.

أخته.

وجهها وهي تُسحب بعيدًا.

لا.

هذه المرة لن يكرر نفس الجريمة.

مشى خطوات أخرى. لكن قلبه ثقيل. وقف عند زاوية الجدار القديم.

أسند رأسه للحجر البارد.

"لو عدت... سأتورط أكثر".

"لو لم أعد... سأفقد شيئًا لن أستطيع استعادته".

الهمس صار صراخًا داخليًا:

"ارجع".

"الذين يهربون من قدرٍ واحد... يسقطون في قدرٍ أسوأ".

تنفّس بعمق.

فتح عينيه.

"حسنًا".

قالها بصوت منخفض، كأنه يسلّم روحه للمعركة القادمة.

واستدار.

رجع للوراء. رجع إلى النقطة التي تركها فيها.

لكنه لم يجدها.

المكان خالٍ.

لارين... اختفت.

وقف هناك لحظات.

الناس يمرون بجانبه، لا يشعرون بثقله، لا يسمعون العاصفة التي في داخله.

"أين ذهبتِ؟"

لكن السؤال الأكبر كان:

"لماذا كنت بهذه القسوة؟"

أغمض عينيه.

لم يعد أمامه سوى خيار واحد.

العودة إلى المعركة. لكن هذه المرة... المعركة ليست مع الجنود. بل مع مصيره هو.

شدّ معطفه. وخطى أولى خطواته نحو البحث.

الفصل السادس عشر-بين أنياب ميرسال

ميرسال لا ترحم الغرباء. وهذا ما فهمه "يازِن" حين تركها وحدها.

في البداية ظن أنه يهرب من مشاعره. ظن أن الرحيل هو أسهل الطرق. لكنه الآن، وهو يسير في شوارع المدينة... أدرك أنه ترك قلبه معها.

مشاعره كانت تتصارع داخله. هل عاد لأنه يحبها؟ أم لأنه يشعر بالذنب؟

لكن الحقيقة كانت أوضح من أن يخدع نفسه: أحببتها... ولهذا عدت.

دخل السوق الكبير. الوجوه غريبة. الناس غريبة. لا أحد يعرفه... ولا أحد يعرفها.

سأل أحد الباعة، سأل رجلاً مسنًا، بحث في الأزقة.

لكن كل الأجوبة كانت واحدة:

لم أرَ شيئًا. لم تمرّ من هنا. لماذا تسأل؟

شعر بشيء بارد يضرب صدره.

هل أضاعها للأبد؟

خطى خطواته بين الجموع. كلما نادى باسمها في عقله، ابتلعته المدينة أكثر لكن كان هناك شيء غريب في الجو. الناس يتحدثون عن الأمير.

كأن المدينة نفسها تغيّرت منذ ساعات، الحراس أكثر، الأبواب تُقفل،الحشود تتحرّك كأنها لعبة شطرنج.

لماذا كل هذا؟

لم يذكر أحد اسم "لارين"، لكن الحديث عن تحرّكات الحرس زاد من قلقه. سمعهم يتهامسون:

شيء غريب يحدث في القصر اليوم. قالوا هناك أوامر عليا لم يُفصِح عنها أحد.

وقف يازِن أمام الممرات الحجرية.

كان يعرف هذه النظرة في عيون الناس.

المدينة تخبئ سرًّا.

هل لها علاقة بما يحدث؟ هل اختفاؤها صدفة... أم أنها في وسط هذا الجنون كله؟

لم يكن يملك دليلًا. لم يكن يعرف أين يذهب.

لكن قلبه كان يعرف. لو أنني لم أترككِ... لو أنني فقط... فهمتُ نفسي قبل فوات الأوان.

مرت ساعة. ثم أخرى.

الليل بدأ يبتلع الأزقة.

"يازِن" كان يمشي بلا اتجاه.

كأن المدينة تجرّه نحو بابٍ واحد:

باب القصر.

لكن لم يجرؤ على الاقتراب.

ليس بعد.

كل ما يعرفه...

أن القدر لن ينتظره كثيرًا.

وللمرة الأولى في حياته، شعر أن ما ينتظره قد يكون أكبر من احتماله

الفصل السابع عشر-سجنان لا يشبهان بعضهما

كانت تعرف هذا الشعور جيدًا... الشعور بأن تكون سجينة، حتى وأنتِ حرّة. في أرنايا، لم تكن هناك جدران ولا قيود، لكن الزلازل كانت تحت قدميها... وفي صدرها. كل يوم، تهتز روحها: كلمة قاسية، نظرة ازدراء، صوت رجلٍ يأمر، وامرأةٍ تصمت. النساء هناك لا يهربن بأقدامهن، بل يهربن بأحلامٍ سريعة قبل أن يستفيقنَّ على الحقيقة.

الآن، في ميرسال، الجدران موجودة فعلًا. باب من الحديد، غرفة باردة، عيون تراقبها من ثقوب صغيرة. لكن لسببٍ غريب، شعرت أن هذا السجن أرحم من سجن أرنايا.

على الأقل هنا... لا أحد يعرفني.

في أرنايا كانت تُمزّقها نظرات الآخرين. هنا... لا أحد ينظر إليها كأنها خطيئة تمشي.

مرت ثلاث ليالٍ منذ أخذها الجنود. ثلاث ليالٍ وهي تنتظر. في كل ليلة، كانت تتوقع أن يُفتح الباب على جنود يسحبونها إلى الموت. لكنهم لم يفعلوا.

في الليلة الثالثة، جلست على الأرض، ظهرها للحائط، وعيناها تحاولان التعود على العتمة. سمعت صوت خطوات. صوت مفاتيح.

انفتح الباب.

دخل رجل بملابس بسيطة. وجهه مغطّى جزئيًا، لم ترَ ملامحه جيدًا.

قال بصوت خشن: انهضي.

نظرت إليه، لم تسأله شيئًا.

أكمل: الأمير يريد رؤيتكِ.

الأمير، الكلمة ثقيلة كالحجر. هل هذا يعني النهاية؟ أم بداية مصيرٍ آخر؟

نهضت ببطء. أقدامها ترتجف من البرد... أو من شيء آخر.

تبعت الرجل في الممرات الحجرية. كل خطوة كانت ثقيلة، لكن قلبها، بشكل غريب... كان أخف من قبل.

ربما لأنني وصلت إلى النقطة التي لا يعود بعدها شيء. قالتها في نفسها.

وصلت إلى باب خشبي ضخم.

وقف الرجل أمام الباب وقال: أمامكِ خياران، يا ابنة الجنوب... إما تفتحي هذا الباب وحدك... أو أبقى أنا وأفتحه لكِ.

صوته كان واضحًا: لكن الأبواب التي تُفتح وحدها... تجعل صاحب القصر يحترم الداخل.

ترددت لارين. ثم مدت يدها. وضعت راحة كفها فوق الخشب الثقيل.

ودون أن تدرك لماذا، شعرت أن هذه اللحظة أصعب من كل شيء مرّ بها.

دفعت الباب.

لكن الظلمة من الداخل... كانت أعمق من ظلمة زنزانتها.

الفصل الثامن عشر

حين أغلق الحراس الباب خلف لارين... شعرت كأن العالم كله انكمش حولها.

الهواء صار ثقيلاً. الضوء خافت. والجدران تراقب.

في وسط القاعة، وقف رجلٌ بثبات صخرة قديمة.

الأمير.

كان مغطى برداء داكن، لا يظهر منه سوى وجهه... وعيناه. عينان لا تطرفان.

لم يقل شيئًا.

ظل يحدق بها حتى شعرت أن الأرض تحت قدميها ستنهار.

ثم قال بهدوء شديد: في ميرسال... لا نحتاج لمعرفة من يدخل. بل نحتاج فقط أن نقرر... من نتركه يخرج.

صوته هادئ... لكنه أقسى من الضرب.

أشار للحراس.

وضعوا أمامها صندوقًا أسود صغير، على طاولة حجرية باردة.

قال الأمير: هناك مفتاح واحد في هذا الصندوق.

إما يفتح لكِ طريق الموت...أو يفتح لكِ الموت بطريقة أخرى.

ابتسم ابتسامة لا تحمل دفئاً.

قال: هنا... لا توجد خيارات صحيحة. كل الطرق تؤدي إلى خسارة شيء.

اقتربي.

تقدمت لارين ببطء. رُكبتيها ترتجفان... لكنها لم تتراجع.

وقبل أن تلمس الصندوق، رفع الأمير يده بإيماءة بسيطة... فتوقف كل شيء.

قال بصوت أخفض... لكنه أخطر:

توقفي.

اقتربي أكثر بعينيك... لا بيدك.

سألها: هل تعلمين لماذا أنتِ هنا؟

لم ترد.

قال وهو يقترب منها حتى كاد يسمع أنفاسها:

لأني قررتُ أنكِ لا تستحقين الموت... ولا الحياة.

أنتِ في الفراغ بين الاثنين.

سكت لحظة.

ثم بصوت صار كهمسة مقصلة: أخبريني... ما هو أكبر خطأ ارتكبتهِ في حياتك؟

كان هذا الامتحان.

لو جاوبت خطأ... الموت، لو جاوبت صح... الموت أبطأ فقط.

لكنها عرفت في تلك اللحظة أن الأمير... لا يريد جواباً.

هو يريد أن يرى من هي.

الفصل التاسع عشر

(1)- مجلس الظلال

لارين ما زالت واقفة أمام الصندوق الأسود، أنفاسها قصيرة. القاعة باردة... لكن ظهرها يتصبب عرقًا.

الأمير لا يزيح نظره عنها.

قال بهدوء، كأنه يشرح درسًا في الذبح:

كل شخص يصل إلى هذه القاعة... يترك شيئًا خلفه. بعضهم يترك دمه... وبعضهم يترك كرامته.

وأنتِ؟

سأترك لكِ الاختيار.

مد يده ببطء، وأدار الصندوق باتجاهها.

قال: افتحيه.

مدت يدها ببطء... قلبها يدق كطبول حرب.

(2)-المدينة -الجهة الجنوبية

في نفس الوقت، كان يازِن يركض وسط الأزقة.

وجهه مبلل بالمطر... أو بالدمع، لا يعرف...كل ما يعرفه أنه أخطأ.

لم يكن يجب أن يتركها وحدها. لم يكن يجب أن يهرب من شعوره.

"أنا أحبها؟ مستحيل"...

كررها في رأسه. لكن قدماه تفضحانه... يبحث عنها كمن فقد جزءًا من روحه.

سأل أحد الباعة:

-"لم ترَ فتاة بملابس سفر، شعرها بلون الغسق؟"

رد العجوز:

-"في ميرسال، لا أحد يبقى على حاله يا بني... كل من يدخل يغيّره المكان".

(3)-العودة إلى مجلس الظلال

لارين فتحت الصندوق.

داخله... وجدت مفتاحًا واحدًا.

لكن المفاجأة... أن المفتاح ليس حديديًا. كان مصنوعًا من زجاج شفاف، كأنه يمكن أن ينكسر بلمسة.

قال الأمير: هذا هو مفتاحك.

قالت بصوت مخنوق: إلى ماذا يفتح؟

ابتسم الأمير ابتسامة باردة: إلى نفسك.

ثم أدار ظهره، ومشى باتجاه الظل.

قال قبل أن يختفي صوته:

في ميرسال... أخطر الأبواب هي التي نفتحها نحن لأنفسنا.

(4)-**خارج القصر**

يازِن توقف في منتصف الطريق.

سمع من أحد الحراس:

-"الفتاة الجديدة؟ الأمير أخذها لمجلس الظلال".

ارتجف قلبه.

يازين يعرف... لا أحد يخرج من هناك سليمًا.

رفع بصره نحو القصر الكبير... وأدرك أن اللحظة القادمة... ستغير كل شيء.

الفصل العشرون : النافذة التي لم تُغلق

لم تكن زنزانتها كما تذكّرتها. كأن الجدران اقتربت أكثر، تضغط على صدرها، تشد أنفاسها من حنجرتها. كأن الهواء تغيّر... صار ثقيلاً، راكداً، كأنه يحمل ذاكرة أحدٍ غيرها.

جلست على الأرض، تضمّ ركبتيها إلى صدرها، ظهرها ملتصق بالحائط البارد، تراقب السكون الموجع. لا تعرف ما تنتظر، ولا متى تنتهي هذه اللحظة التي لم تفهم كيف بدأت.

أسدل الليل عباءته، وبقيت الزنزانة على حالها: باردة، خاوية... مشبعة بما لا يُقال. ومن فتحة صغيرة قرب السقف، نافذة حديدية بالكاد تمرّ منها ذرة ضوء، تسلّل خيط باهت كأنه خجلٌ من الدخول.

رفعت رأسها نحو الضوء... ثم توقفت.

هناك، على الطرف الآخر من الرواق، خطوات تتقدّم. أصوات حذرة... همسات حراس. وشخصٌ يُقاد بينهم.

كانت الرؤية ضبابية، مشوّشة... لكن وجهه لم يكن غريبًا. العينان فقط... كانتا كافيتين لكسر كل دفاعاتها.

تجمّد شيء في داخلها. ثم انكسر.

الشعر المتّسخ، الجرح على جانب الرأس، الخطوة المتعثّرة، والانكسار في النظرة... كل ذلك رسم في روحها اسمه.

شهقت. لكن الصوت علق في صدرها. تراجعت عن النافذة بسرعة، كأنّ النار لسعتها. ألصقت ظهرها بالحائط، وارتجف قلبها كأنه يدقّ بلا عقل.

"لا... لا يمكن". همست، تمسك رأسها بين كفيها، كأنها تحاول إخراج الصورة من عقلها.

"مش هو... أكيد بتوهّم". لكن قلبها لم يقتنع. ولا ذاكرتها.

رأته.

عرفته من صمته. من طريقة استسلامه، وكأنه لا يريد أن يُقاوِم. من العيون التي كانت تبحث... عنها؟ عن شيءٍ منها؟ أم ربما عن شيءٍ فَقَده حين تركها خلفه.

مرّ الوقت دون ملامح... دقائق؟ ساعات؟ لا تدري. كانت تبكي بصمت، دموعًا لا تُشبه دموعها المعتادة. بلا صوت، بلا مبرّر واضح... لكن بألم حقيقي.

"ليش تبكين؟" "هو خانك، تركك، نسيك يوم احتجتيه". لكن قلبها لم يعرف الكراهية يومًا. كان أجبن من ذلك.

اكتشفت الآن فقط... أنها لم تُشفَ. وأنها لم تتجاوزه... بل فقط رتّقت الشقوق بثياب الكبرياء، وأخفت الألم تحت ليلٍ طويل من الإنكار.

كانت تظن أن الزنزانة سجنت جسدها فقط. لكن الحقيقة؟ هي سجنت قلبها أيضًا... معه.

ولأول مرة منذ دخلت ميرسال، شعرت بالضعف الحقيقي. ليس ذاك الذي يكبّلك من الخارج... بل الضعف الذي يجعل قلبك يتلعثم حين تتمنى لو يناديك، فقط لتنكسري وتعودي.

لكنه لم ينادِ. ولم يرها حتى.

ربما هو الآخر لم يتجاوزها. أو ربما الحياة نهشت ملامحه كما فعلت بها.

رفعت عينيها نحو النافذة مرة أخرى... لكنه لم يكن هناك. اختفى كما ظهر...بصمت.

كل ما تبقّى في الزنزانة... كان بكاءها، وصوت قلبٍ لم ينجُ من الذكرى

الفصل الحادي والعشرون : خُطى لا تعرف وجهتها

لم تكن تلك الليلة كغيرها. ظلت لارين مستلقية على الأرضية الباردة، عيناها مفتوحتان في عتمة الزنزانة، والدماء في عروقها لم تكن سوى رجع صدى لصوت طرقات الحذاء العسكري الذي رافقها في الكوابيس. لا تدري ما الذي أوجعها أكثر: ضياعها المفاجئ، أم ذلك الوجه الذي رأته للحظات، والذي بدا مألوفًا حدّ الألم.

ثم جاء الصوت. باب الزنزانة يُفتح بصرير معدني، وشعلة فانوس تضيء وجه حارس لم تره من قبل.

-"انهضي. الحاكم يطلبك".

صوت جاف، خالٍ من الغضب أو الشفقة. نهضت، واتبعت الحارس دون سؤال.

لم تكن تعرف إلى أين تذهب، ولا لماذا الآن، لكن الممر بدا مختلفًا. جدران أنظف، إنارة أقوى، ولا صراخ خلف الأبواب. كأنها نُقلت إلى سجنٍ آخر دون أن تدري.

وصلت إلى غرفة واسعة، ذات نافذة عالية تسمح ببقعة من الضوء الرمادي أن تنساب على الأرضية الحجرية. في منتصف الغرفة، جلس الحاكم.

لم يكن يحمل عصًا ولا محضرًا ولا ملامح تُوحي بشيء. نظر إليها طويلاً... ثم قال بهدوء:

-"أنتِ ستخرجين من هنا".

-"اعتبريه قرارًا إداريًا. أسباب القرار لا تُكتب".

توقفت لارين للحظة، لم تنبس بكلمة. عقلها كان يحاول أن يستوعب المعنى. لكن شيئًا في نبرة الرجل، وفي الجفاف الذي أحاط بالجملة، جعلها تشعر أن السؤال سيكون بلا جدوى.

اقتيدت إلى حجرة صغيرة أُعيدت فيها ممتلكاتها: وشاح قديم، قلادة مكسورة، وخاتم صغير ربما لم تعد تتذكر متى ارتدته آخر مرة.

خرجت.

الهواء البارد ضرب وجهها كصفعة. لم تصدق أنها بالخارج. السماء فوقها، الأرض تحتها، والبوابة خلفها أُغلقت... كأنها لم تكن.

لكن في ذات اللحظة، وفي أعماق السجن، كان رجلٌ آخر يُقاد عبر ممرٍ آخر.

يازِن، بصمته المعهود ووجهه المُلطّخ بالكدمات، خضع لساعات من التحقيق والتنكيل. لكنه اليوم يُقاد دون قيد، دون كلمات تُقال.

وقف أمام باب حديدي كبير، لا يحرسه سوى رجل واحد.

دُفع إلى الداخل.

المكان كان غرفة فارغة تقريبًا، إلا من طاولة صغيرة، عليها كوب ماء، ومنديل نظيف، ومفتاح.

قال الحارس دون أن يلتفت إليه:

-"اجلس. القرار لم يُتخذ بعد. ربما تكون هذه فرصتك... وربما لا".

ثم خرج، وأغلق الباب.

يازِن بقي واقفًا للحظات، يحدق في الطاولة. المفتاح هناك. لا أحد يمنعه من استخدامه... لكن لا باب ليفتحه.

جلس أخيرًا.

في عينيه ظلّت تلك النظرة الحادة، القلقة. كأنه ما زال ينتظر شيئًا ما. أو شخصًا ما. كأن الرياح التي حرّرت لارين، مرّت عبر جدران هذا السجن أيضًا... لكن لم تُسقط عنه القيد بعد.

أما هي، فكانت تمشي في الطرقات بخطى مترددة، تبحث عن أول ظلّ يمكن أن يصدّق أنها لم تخرج من كابوس... بل إلى كابوس آخر، أكبر

الفصل الثاني والعشرون

لم تنم، لم تُغمض لها عين، ولا وجدت أرضًا تلتحفها أو سقفًا يأويها. الليل بدا أطول من ذي قبل، والبرد ينهش عظامها أكثر من أي وقت مضى، لكن شيئًا واحدًا أبقاها واقفة على قدميها: يازِن.

مع أول خيوط الفجر، بدأت الحياة تعود ببطء إلى طرقات ميرسال. خطوات الحراس على الأرصفة، نداءات الباعة المبكرة، وصوت الأبواب تُفتَح بأزيز متعب. كانت عيناها مثبتتين على البوابة الشرقية للقصر، وقد باتت تعرف مواقيت حركة الحرس جيدًا، تنتظر. ثم رأته.

محاطًا برجال القصر، يُساق دون مقاومة، مقيّد اليدين. لم يكن متهالكًا، لكن التعب بادٍ على وجهه. عيناه ظلّتا مرفوعتين، كأن فيهما بقايا كبرياء تأبى الانكسار. لحظة دخوله القصر، اختفى من أمامها... لكن ظلّ صوته في داخلها.

هل سيُقتَل؟ هل سيكشف عني؟ هل سيتحمّل؟

تسللت.

دون خطة، دون سلاح، ودون يقين. كل ما تملكه كان ذلك الذعر الكامن في قلبها، والذي صار وقودًا يدفعها خطوة بعد خطوة نحو الجنون أو الشجاعة.

عرفت طريقًا خلفيًا من الأيام الأولى لمجيئها... فتحة صغيرة قرب الجناح المهجور، قرب الإسطبلات، لا يدخله إلا من كان نحيل الجسد وقوي الإرادة. زحفت عبره، جُرحت، تمزق كمّها، سقطت على الأرض الرطبة داخل الممر، لكنها نهضت.

الدهاليز المظلمة تنفستها أنفاسها المضطربة، لم تكن تعرف إلى أين، لكنها كانت تلاحق شيئًا ما... صوتًا. ثم سمعتهم.

كان في الغرفة المجاورة. الحاكم، وصوت يازِن... وشيء آخر لا تفهمه. صمت ثقيل، كأن الاثنين يتبادلان النظرات أكثر من الكلمات.

-"اسمك؟"

-"يازِن".

-"من أين أتيت؟"

-"من الطريق".

سكون. ثم صوت الحاكم، بنبرة منخفضة ولكن فيها ما يشبه الشك:

-"أنت لست من المتسوّلين. وقفتك... نظرتك... ليست نظرة جائع".
-"الجوع لا يُغيّر ما في العين".

لحظة صمت... كأن أحدًا قد صفع الحاكم دون أن يلمسه.

-"لماذا دخلت؟"

-"أبحث عن فتاة".

تجمد قلب لارين.

كان يمكنه أن يقول أي شيء آخر... لكنه اختار أن يقول الحقيقة.

-"أية فتاة؟"

-"هي تعرفني، وأنا أعرفها".

صوت الحاكم اقترب أكثر، كأن وجهه بات قريبًا من يازن:

-"هل تعرف أن دخول القصر دون إذن، عقوبته الإعدام؟"

-"أعرف".

-"ودخلت؟"

-"نعم".

ارتجفت لارين.

كل جزء فيها صرخ كي تدخل، كي تنقذه، كي تقول شيئًا... لكنها لتتحرك.

-"لماذا؟"

-"لأجلها".

تراجعت خطوات الحاكم. لم يجب. فقط طرق بأصابعه على الطاولة، ثم قال:

-"خذوه".

صوت السلاسل احتكّ بالأرض، وسمعت خطوات الحرس تبتعد.

هنا، ركضت لارين.

لكن ليس تجاهه.

ركضت للخارج. انفجرت بالبكاء أول ما خرجت من الجناح.

ليس لأنه سيُقتل، بل لأنه دخل من أجلها، وقال الحقيقة، وتحمل كل شيء... بينما هي تلوذ بالخوف والتردد.

كان عليها أن تختار.

تتقدم أو تهرب.

تُنقذه أو تُنقذ نفسها.

وللمرة الأولى، شعرت أن الوقت لا يسعفها أكثر.

ركنت نفسها إلى ظل جدارٍ بارد، عيناها متعلّقتان بحركة الحرس وهم يجرّون يازن في الصباح التالي من بوابة النُزل باتجاه القصر. لم يستطع أحدٌ أن يلمحها، لا الحرس، ولا يازن نفسه، فقد أصبحت

تتقن الآن فنّ التخفي، بعد أن تعلّمت من شوارع ميرسال كيف تكون الظلال أوفى من البشر.

حاولت أن تبقى ثابتة. أن تكبح ذلك الارتعاش في أطرافها. كانت تعلم أنّه لن ينكسر بسهولة... لكن الحاكم؟ ماذا سيفعل به هذه المرّة؟ وهل تُكرّر المآسي نفسها، أم أنّ للقدر هذه المرة خطة أخرى؟

تسلّلت خلفهم بخفة قطة جائعة، حتى وصلت قرب نافذة جانبية تعلو قاعة العرش بقليل. كانت النافذة صغيرة، بالكاد تتسع لعينيها، لكنّها سمحت لها بأن ترى وتسمع.

وقف يازن بثيابه الممزقة، بصدرٍ مفتوحٍ وعينين حادتين. لم ينحنِ. لم يطلب الرحمة.

الحاكم اعتدل في جلسته، وكأنه أمام شخصٍ يليق به الإصغاء.

قال ببرود:

"لم أتوقّع أن تعود... مجدداً".

ردّ يازن بصوتٍ أجشّ، كمن قضى الليل محاطًا بالأشباح:

"لم أعد. أنا فقط... لم أهرب".

صمتٌ مفاجئ. ارتفع حاجبا الحاكم.

"وهل هذا يُحسب شجاعة؟ أم حماقة؟ لقد حذرتك سابقاً".

"أعلم." أجابه يازن، ثم أضاف بنبرة أعمق، كمن يحمل جراح قريةٍ بأكملها:

"لكن ما بين الحماقة والشجاعة... فرقٌ لا يراه إلا من خسر كل شيء".

كان في صوته شيءٌ يشبه الحقيقة... شيءٌ جعل قلب لارين يخفق بشدة.

كانت تودّ أن تصرخ من مكانها" :كفى! أوقفوا هذا الجنون"! لكنها لم تفعل. لم تتحرّك.

في داخلها، تدور حرب. عقلها يناديها بالهروب، بالنجاة، بالقسوة التي تعلّمتها هنا. أما قلبها... فكان يحفر لها قبراً من التردد.

سمعت الحاكم ينهض.

"أعطني سبباً واحداً كي لا أقطع رأسك الآن".

ردّ يازن بهدوء:

"لأنك تعرف جيداً... أنني لا أقاتل من أجل نفسي".

ثم نظر مباشرة في عيني الحاكم، وتابع:
"بل من أجلها... ومن أجل أولئك الذين لا صوت لهم خلف أسوارك العالية".

تجمد الزمن للحظة.

لارين شهقت بصوتٍ خافت. لم يُنطق باسمها، لكنها شعرت أن الجملة تتجه نحوها، تُمسك بها، وتُهدد بانهيار آخر جدار كانت تحتمي خلفه.

هربت من النافذة، من الصوت، من نفسها.

ركضت... ليس إلى النُزل، بل إلى الشارع المؤدي للقصر من الخلف، حيث الحقول الخالية والباب الحجري القديم.

كل خطوة كانت تثقلها أكثر.
أتعود لأجله؟
أتسقط هي الأخرى في الهاوية؟
أم أن الوقت قد حان... لتصنع مصيرها بيدها، ولو احترقت؟

لم تكن تعرف.

لكنها استمرت بالركض... نحو المصير.

الفصل الثالث والعشرون

ركضت، ركضت حتى خارت ساقاها... كانت الأرض تتمايل تحتها، والعالم يدور بداخل رأسها، كأن كل صخرة وكل غصن كان يسخر منها، من ضعفها، من وحدتها، من الخوف الذي يلاحقها كظلٍّ ثقيل لا ينكسر.
سقطت.

لم تكن ضربة قوية، لكنها كانت كافية لتسحب منها آخر أنفاس التماسك.
جسدها ارتطم بترابٍ بارد، ووجهها غاص في تربةٍ تشبه قلبها الآن: مثقلة، جافّة، ومليئة بالشقوق.

ثمّ... سكون.
همسات الريح عبر الأشجار العالية، صوت طائر بعيد، تنفّس متقطّع... وظلام.

حين فتحت عينيها، لم تكن تعرف كم مرّ من الوقت. كانت على فراشٍ بسيط داخل كوخ حجري صغير، له سقف من الخشب المهترئ، ورائحة خفيفة لشيء يُطهى. شعرت بدفء خفيف، لم يكن من النار، بل من بطانيةٍ ثقيلة تغطيها حتى عنقها.

حاولت أن تنهض، لكنّ صوتًا رجوليًا هادئًا أوقفها: "لا تتحرّكي بسرعة... أُغمي عليكِ في الغابة، كنتِ ترتجفين من البرد والتعب".

استدارت ببطء.

كان يقف عند الزاوية، عاقدًا يديه خلف ظهره، يرتدي معطفًا داكنًا، وله لحية خفيفة غير مشذبة، وملامحه قوية لكن هادئة. عيناه... كان فيهما شيء مألوف، لكنها لم تعرف ما هو.

قالت بتردد:

"أين أنا؟ ومن أنت؟"

ابتسم بخفة:

"مكان آمن. ولن أؤذيك".

"هل... هل أنت من حراس المدينة؟"

"لا".

صمت.

ثم، جلست بصعوبة، وهمست، كمن يغالب دمعًا داخليًا: "هل سمعت عن شاب اسمه **يازِن**؟ كان برفقتي... ثم... لا أعرف أين هو الآن... أظنه قُتل. أو أُخذ... أو... لا أعلم"!

كان الرجل يحدّق إليها، دون أن يُظهر الكثير من التأثر، لكنه سأل بهدوء:

"من يكون بالنسبة لك؟"

نظرت إليه بعينين مليئتين بالألم: "كل شيء. كان كل شيء"...

لحظة صمت. ثم أضافت:

"أرجوك... ساعدني. لا أريد شيئًا من هذا العالم... فقط أن أعرف، إن كان حيًّا... أو أن أراه للمرة الأخيرة".

تنهّد الرجل ببطء، ثم قال بنبرة عميقة:

"سأساعدك".

اتسعت عيناها، وبدت كأنها لم تصدق.

لكنه أكمل، مائلًا برأسه قليلًا إلى الجانب:

"لكن عليك أن تثقي بي، وألا تسألي الكثير من الأسئلة الآن".

أومأت برأسها، لم تكن تملك خيارًا. لكن قلبها... قلبها كان يدقّ بقوة غريبة.

لم تكن تعرف من هو، ولماذا شعرت بأنه ليس غريبًا تمامًا، لكنّه الوحيد الآن. والوحيد الذي وعدها بشيء يشبه الأمل.

في الخارج، كانت العاصفة تهدأ، والسماء تُنذر بعودة الشمس. لكن داخل ذلك الكوخ، كانت بداية لشيءٍ أكبر. بداية علاقة غامضة، تتشابك فيها القلوب قبل أن تتشابك الأقدار.

ولم تكن لارين تعرف بعد... أن من أنقذها، ليس مجرد رجل... بل ابن الأمير نفسه.

صباح اليوم التالي

استفاقت "لارين" وهي لا تزال تشعر بألمٍ خفيف في أطرافها، والبرد لم يرحم جسدها المُنهك. نظرت من النافذة الصغيرة في السقف، فرأت خيوط الشمس تتسلل بخجل إلى الداخل. المكان الذي نامت فيه لا يُشبه بيتًا حقيقيًا، لكنه كان دافئًا وآمنًا بما يكفي بعد تلك الليلة المجنونة.

دخل الشاب الغريب -الذي لا تزال تجهل اسمه -وهو يحمل قطعة خبز وكوب ماء. قدّمه لها بصمت، ثم جلس قريبًا، دون أن يرفع عينيه نحوها.

"شكراً..." همست وهي تتناول الطعام ببطء.

ظلّ صامتًا برهة، ثم قال:

"أريد أن أُساعدك، لكن عليك أن تخبريني بكل شيء. من تبحثين عنه؟ ولماذا كنتِ تركضين بين طرقات المدينة كأنك تهربين من شيء ثقيل؟"

ترددت "لارين"، ثم حدّقت في الخبز بين يديها وقالت:

"اسمه يازِن... اختفى. أظنهم أخذوه للقصر. لا أعرف كيف أصل إليه ولا كيف أُنقذه"...

رفع الشاب رأسه لأول مرة ونظر في عينيها مباشرة، وكأن شيئًا ما فيها حرّك داخله إحساسًا مألوفًا. ثم سألها بهدوء:

"قصر الأمير؟"

أومأت برأسها بسرعة.

"نعم... أظن أن هناك من يريده أن يختفي. وأنا... لا أملك سوى هذه الكلمات، وهذا الأمل السخيف في أن أجد من يساعدني".

نهض الشاب فجأة، اتجه نحو الرف وجلب خريطة صغيرة للمدينة، فرشها على الطاولة وبدأ يشير لها على مواقع الحراسة، البوابات، الممرات الخلفية.

تجمدت "لارين"، نظرت له بدهشة:

"كيف... كيف تعرف كل هذا؟"

ابتسم ابتسامة خفيفة، لم تكشف عن الكثير.
"لأني كنت هناك. لفترة طويلة".

حدقت فيه. أرادت أن تسأله من يكون، لكنها خافت أن تكشف خوفها.
"أنت... هل تعرفه؟ أقصد... هل تعرف الأمير؟"

لم يُجب مباشرة، بل قال بعد صمتٍ ثقيل:
"أنا أعرف أن يازن لن يبقى هناك طويلًا إن لم نتحرّك الآن. سنذهب الليلة، لكن عليك أن تثقي بي".

ثم أدار ظهره، كأنه لا يريد أن يُغرقها بمزيد من الأسئلة.

تسارعت دقات قلب "لارين"... كانت تشعر أن هناك شيئًا غريبًا في هذا الغريب. شيء مألوف وغامض في آنٍ معًا. كيف يعرف المدينة؟ كيف يخطط بدقة وكأنه عاش داخل الجدران الملكية؟ ولماذا لم يسأل عن اسم يازن أو شكله حتى؟

لكنها لم تملك رفاهية التردد.
هذه الليلة، ستدخل من جديد إلى ظلال القصر

الفصل الر ابع والعشرون

في ظلمة الليل، كانت المدينة تبتلع نفسها بصمت. الشوارع الخالية، والأنوار الخافتة القادمة من فوانيس الحراس، رسمت مشهداً مريبًا، وكأن المدينة تحبس أنفاسها بانتظار شيء غير مألوف.

"لارين" تمشي خلفه دون أن تنطق بكلمة. الشاب كان يسير بثقة كأنه يعرف كل زاوية في هذه المتاهة الحجرية. مرةً يأخذها في زقاق ضيق، ومرةً يطلب منها أن تنتظر حتى يمرّ الحارس، ومرةً يطلب منها الانبطاح والانتظار تحت جسرٍ قديم مهجور.

لم يكن بحاجة لشرح... خطواته وحدها كانت تروي قصة عاشها، أو هرب منها.

وصلوا أخيرًا إلى الجدار الخلفي للقصر. لم يكن جدارًا يُمكن تسلقه بسهولة، لكن الشاب طرق على صخرة محددة ثلاث مرات، ثم أزاحها، فكشف عن فتحة ضيقة تكاد لا تُرى.

تراجعت "لارين" للوراء بخوف: "ما هذا؟"

همس لها:

"نفق قديم... لم يعد أحد يستخدمه. لكنه لا يزال متصلًا بالمخزن

الجنوبي في القصر. من هناك يمكننا التسلل إلى الأسفل، حيث يحتجزون من لا يُريدون أن يراهم أحد".

نظرت في عينيه. لا تملك خيارًا آخر.

"حسنًا... لنذهب".

الهواء في النفق كان خانقًا، والرطوبة تتساقط من السقف كأنها دموع من زمنٍ مهجور. جدرانه محفورة بآثار أظافر، أو ربما أدوات استخدمها الهاربون أو المساجين.

"لارين" تشعر بخوف لم تشعر به من قبل، لكن وجوده أمامها، رغم غرابته، يمنحها شعورًا باهتًا بالأمان.

وصلوا إلى بوابة حديدية صدئة. توقف الشاب، أخرج مفتاحًا صغيرًا من سلسلة حول رقبته.

"من أين لك هذا المفتاح؟" همست بدهشة.

لكنه لم يُجب، فقط قال: "اصمتي الآن... اقتربنا".

فتح الباب ببطء، وتسلل الاثنان نحو الممرات الجانبية. صمت مطبق، سوى أصوات الحراس في الأعلى. تسللوا كالأشباح.

ثم فجأة، أمسك الشاب بيد "لارين" وأوقفها. أشار بإصبعه نحو نافذة صغيرة تطل على غرفة حجرية، وهناك...

رأته.

"يازِن".

كان مُلقى على الأرض، عيناه نصف مغمضتين، وجهه شاحب، ويده مربوطة بسلسلة حديدية إلى الجدار. لكنّه حي. يتنفس. موجود.

كادت "لارين" أن تصرخ باسمه، لكن الشاب شدّ على يدها بقوة، وهمس من بين أسنانه:

"اصمتي... هناك من يراقب".

ولكن...

من داخل الغرفة، ومن بين خيوط التعب والعتمة... فتح "يازِن" عينيه ببطء، ورفع رأسه قليلًا. لمح ظلّين خلف النافذة الضيقة، وركز بصره أكثر.

وفجأة...أنت؟"

قالها بصوت مبحوح لكنه مشحون بدهشة حادة.

الشاب أمام "لارين" تجمّد للحظة، بينما تابع "يازِن" بنبرة متقطعة:

"كيف... أنت؟ كيف وصلت؟ وكيف... ويّاها؟"!

كانت نظرته تجمع بين المفاجأة، والشك، والغضب المكبوت.

تراجعت "لارين" قليلاً، نظرت إلى الشاب الذي لم يرد. لم يبدُ عليه الارتباك، بل كأنّه كان يتوقّع هذا اللقاء. اقترب أكثر من النافذة، وقال بصوت هادئ: "لا وقت الآن للشرح... جئنا لنُخرجك من هنا".

لكن "يازِن" قاطعه:

"تجي تنقذني؟ إنت؟ ومن وين طلعتلي فجأة؟ وشنو دخلها هي؟"

"لارين" همست بارتباك:

"يازِن... اسمعني، أنا... أنا ما كنت أعرف كل شي، بس كنت مضطرة أصدق إنه يقدر يساعدنا".

رفع "يازِن" رأسه بصعوبة، وحدّق فيها: "تثقين فيه؟"

سكتت "لارين"، نظرت إلى الشاب، ثم قالت: "لا... بس أثق إنك تستحق تطلع من هنا حي".

الشاب تمهّل لحظة، ثم مدّ يده نحو السلسلة الحديدية من النافذة الضيقة، وقال:

"أنا ابن الأمير... وكل الأجوبة جاية، بس أولاً، لازم نطلعك من هنا".

الفصل الخامس والعشرون

كان الليل قد اشتدّ، وصوت الريح يتسرّب من الشقوق كأنّه أنين الأرواح القديمة. في الزنزانة الباردة، ظلّ "يازِن" يحدّق في الشاب طويلاً، كأنّه يحاول أن يقرأ ما وراء عينيه.

"ابن الأمير؟"

قالها بصوت مبحوح متشكّك.

ردّ الشاب بهدوء، دون أن يُبعد عينيه: "اسمي ميلاد... وأعرف كل ما حدث. سجنك، القلادة، الهروب، وصولكم لميرسال... حتى مكان اختبائك، أعرفه".

ازدادت دهشة "لارين"، فتقدّمت خطوة نحوه: "ليش تساعدنا؟ شو تبغى بالضبط؟"

لم يجبها مباشرة، بل التفت نحو القفل الحديدي على نافذة الزنزانة، أخرج من جيبه أداة صغيرة وبدأ بفتح المزلاج بصبر.

"الوقت قليل. لو اكتشفوا إنّكم هنا، بتنتهي كل الفرص".

"يازِن" قال وهو يقاوم الألم في جسده: "أنا ما أتحرك خطوة وحدة لين أفهم كل شي... أنت مين؟ وليه هي معك؟"

"لارين" كانت بين نارين، توترت، فقالت بسرعة: "أنا التقيته بالغلط... ساعدني، لما كنت ضايعة في السوق. هو اللي عرف مكانك".

أخيراً، انفتح القفل. دفع ميلاد الباب الخشبي من الداخل بخفة، فصدر صوت خفيف جعل الثلاثة ينتبهون ويتراجعون.

"بسرعة!" همس ميلاد.

نهض "يازِن" بصعوبة بمساعدة "لارين"، وبمجرد أن خرج من الزنزانة، شعر بالهواء كأنه نسمة حياة، رغم عفن الممرات تحت الأرض.

"فيه نفق سري"، قال ميلاد، "بس نحتاج نمر من قاعة الحرس أولاً... وإذا شافونا، انتهى كل شيء".

"ويش عن المفتاح؟" سأل "يازِن."

أخرج ميلاد خريطة صغيرة مهترئة من معطفه، أشار إلى نقطة في الزاوية:
"مفتاح البوابة عند القائد، بس فيه طريق ثاني... عبر السرداب الخلفي".

"يازِن" ضغط على فكه، وقال وهو يوجه نظرة نحو "لارين:" "تثقين فيه؟"

نظرت إليه، ثم قالت: "لا أدري... لكني أثق إنك لازم تطلع من هنا. ونكمل معاً".

عبر الثلاثة الممر المظلم بصمت ثقيل. خطواتهم كانت حذرة، والقلق يتكاثر مع كل لحظة.

وقبل أن يقتربوا من نهاية السرداب، سُمع صوت صرير باب حديدي يُفتح في الطابق العلوي... ثم صوت خطوات تنزل على الدرج الحجري.

همس "ميلاد:"
"استخبوا! جا أحد"!

اختبأوا خلف أعمدة متهالكة، وكان صوت الجنود يقترب ببطء... صوت الدروع والسيوف يصطك مع كل خطوة.

نظر "يازِن" إلى "ميلاد" هامسًا:
"إذا كانوا يعرفون عنك، راح نُقتل كلنا".

ابتسم ميلاد بثقة وقال:

"هم يعرفون ابن الأمير... بس ما يتوقعون إنه صار عدو القصر".

في اللحظة الحاسمة، مرّ الحارس من قربهم... ثم انعطف... ولم يلاحظهم.

زفر الثلاثة معًا، ثم اندفعوا نحو المخرج الخلفي. وقبل أن يفتح ميلاد الباب الصغير المؤدي إلى نفق الهروب، استدار فجأة ونظر إلى "يازِن."

"أنت تظنّني عدو، بس بكرا راح تعرف... إن اللي تحسبه حليف هو سبب مصيبتك كلها".

فتح الباب، وقال بهدوء: "جاهزين؟"

"لارين" أمسكت بيد "يازِن"، الذي أومأ بصمت.

ثم عبروا.

ولم يكن يعلم أحدهم، أن ما ينتظرهم في الخارج... أخطر بكثير مما تركوه خلفهم

.

الخارج كان صامتًا كالقبر.

السماء ملبدة، والريح تهب من جهة الجبال البعيدة.

المدينة هناك... في مكان ما خلف التلال، تنام فوق أسرارها وجنودها ووشاياتها.

وهُم الآن، يمشون عكس كل ذلك.

كان "ميلاد" يمشي أمامهم بخطوات ثابتة، يعرف طريقه جيدًا، كأن الظلام لا يعيقه.

"يازِن" اقترب منه قليلًا، وسأله دون لفّ: "كيف عرفت مكاننا؟"

توقف "ميلاد"، وأجاب دون أن يلتفت:

"كنت أراقب النُّزل منذ دخلتماه. كنت أنتظر لحظة مناسبة... والآن هي اللحظة".

الفصل السادس والعشرون

كان الليل يزداد سوادًا كلما ابتعدوا عن أسوار السجن. الريح تلفح وجوههم، والغبار يلسع عيونهم، والظلام يبتلع الطريق. "ميلاد" يمشي بخطوات ثابتة، كأن الأرض تحفظ أقدامه، بينما "يازِن" يتكئ على "لارين"، يجرّ ساقه المصابة بصمتٍ يزداد ثقله.

قال ميلاد بصرامة وهو يلتفت قليلاً: "إذا سمعوا صوتنا، سنكون طُعمًا سهلاً. اصمتوا وامشوا بسرعة".

ضاقت "لارين" من حدّة صوته، لكنها لم تُجادل. كل ما يشغلها الآن هو أن يظل "يازِن" واقفًا. انحنت نحوه هامسة: "تمسّك بي أكثر... أرجوك، لا تنهار".

ابتسم يازِن ابتسامة باهتة، لكن عيناه كانتا تراقبان ميلاد أمامهم بغيرة خفية.

تمتم يازِن بصوت يكاد يُسمع:

"منذ متى يقرر غريبٌ مصيرنا؟"

نظرت لارين إليه برجاء:

"هو أنقذك... لو ما ساعدنا، كنا الآن في قبورنا".

شدّ يازِن قبضته على ذراعها، وقال بنبرة غاضبة:
"لا تنسي... الغرباء دائمًا عندهم ثمن".

كأن ميلاد سمعه رغم صوته الخافت، فالتفت بابتسامة صغيرة وقال:
"الثمن... ليس دائمًا ذهبًا أو سلطة. أحيانًا يكون الحق نفسه أثمن".
ثم عاد يخطو بسرعة، تاركًا خلفه صمتًا أثقل من الريح.

فجأة، دوّى بوق من بعيد، تبعه صهيل خيلٍ يقترب. تجمّدت "لارين" في مكانها.
"الحرس... لحقوا بنا!" صاحت.

أخرج ميلاد خريطة مهترئة، فتحها تحت ضوء القمر المتقطع:
"هناك ممر ضيق خلف التلال، إذا سبقناهم إليه، سننجو".

أسرعت "لارين" بمساعدة يازِن، الذي كان يضغط على فكه بقوة، يُصارع الألم ليبقى واقفًا.
كلما تعثّر، كان ميلاد يمدّ يده ليسنده، لكن يازِن يصفعه بنظرات نارية:
"لا أحتاج يدك".

ابتسم ميلاد ببرود، وقال:
"ستحتاج أكثر مما تظن".

ازدادت سرعة الخيول خلفهم، وصوت الدروع يتعالى مع كل لحظة. الطريق أمامهم كان يضيق، الصخور حادة، والليل يبتلع معالم الأرض.

وفجأة، ارتجفت الأرض تحت أقدامهم... شعلة نارية ظهرت من بعيد، ثم أخرى، حتى تكشّف المشهد عن دورية كاملة من الفرسان قادمة من الوادي.

شهقت لارين، وانكمش قلبها:
"انتهينا"!

لكن ميلاد رفع صوته بحزم:
"لا... هناك طريق أخير، لكنه أخطر".
أشار نحو جرف صخري يهبط إلى وادٍ مظلم.
"إذا قفزنا من هنا، لن يلحقونا".

تراجعت لارين بخوف:
"القفز؟! سنموت"!
اقترب يازِن منها، وضع يده على يدها المرتجفة وقال بصوت متهدّج:
"الموت... أفضل من أن نقع بأيديهم".

ثم نظر نحو ميلاد بحدة، وكأنه يتحداه:
"أنا سأقفز أولاً".

وقف الثلاثة على حافة الجرف، والخيول تقترب، والصرخات تملأ الليل.

أمسكت لارين بيد يازِن بكل قوتها، بينما ميلاد تقدّم بخطوة، ابتسامة غامضة ترتسم على وجهه: "سفينة النجاة... تبدأ دائمًا بقفزة في المجهول".

وفي اللحظة التي صهل فيها الحصان الأقرب، اندفع الثلاثة نحو الهاوية...

وسقطوا في ظلامٍ أعمق مما عرفوه من قبل

الفصل السابع والعشرون

الهواء كان يصفع وجوههم كالسكاكين وهم يهوون في العتمة. صرخة "لارين" اختنقت في صدرها، وذراعها تتشبث بـ"يازِن" كأنها تتشبث بالحياة نفسها، فيما الجسد كله يندفع بلا سيطرة نحو المجهول. لحظة واحدة بدت كأنها أبدية... ثم اصطدموا بالماء بقوة جعلت الدنيا تدور حولهم، صوت ارتطامهم ارتجّ في أذنيها، وملوحة الماء اخترقت حلقها.

التيار كان بارداً إلى حدٍ يلسع الجلد، يجرفهم بلا رحمة. حاول "يازِن" أن يسبح، لكن جسده الممزق بالجرحِ كان يخذله، وذراعه المرتجفة بالكاد تتحرك. بينما "ميلاد" اندفع بخفة، كأنه يعرف كيف يقاتل الماء، يضرب بيديه ورجليه بانتظام يوحي بخبرة سابقة.

"يازِن" كان يلهث، يصرخ وهو يجر أنفاسًا مقطّعة:
-"لا تتركي يدي... مهما صار"!

أمسك بها بكل ما بقي له من قوة، و"لارين" بدورها تشبثت به بجنون، وهي تشعر أن أي انزلاق قد يعني ابتلاع التيار لهما إلى الأبد.

الأمواج دفعتهم في النهاية نحو ضفة صخرية ضيقة. بأصابع مشدودة وكأنها مخالب، جرّهم "ميلاد" واحدًا تلو الآخر، حتى تدحرجوا

جميعًا على الأرض المبتلة، يلهثون بشدة، وصدورهم تتأرجح في صراع بين الحياة والموت.

تردّد صوت الماء خلفهم، متلاطماً، هائجاً... لكن ما عدا ذلك، ساد صمت ثقيل. لا صهيل خيول، لا صرخات حراس، فقط الليل بظلاله، ووحشة المكان.

رفعت "لارين" رأسها ببطء، قطرات الماء تتساقط من شعرها على وجهها المرتجف، وهمست بصوت متقطع: -"نحن... وين؟"

وقف "ميلاد" وهو يزفر، عيناه تتفحصان الجدران الصخرية العالية التي تطوّقهم:

-"في أسفل وادي الظلال... لا أحد يجرؤ على اللحاق بنا هنا".

كلماته جعلت شيئًا يبرد في قلبها.

التفت "يازِن" نحوه، وجهه شاحب من الألم، صوته مبحوح لكنه يغلي بالشك:

-"ومن قال إنك ما خططت لكل هذا؟! من يوم عرفتك وأنا أشك...

تعرف الطريق، تعرف الأسرار... يمكن أنت اللي جبتنا لهون عمداً"!

اقترب "ميلاد" بخطوات ثابتة، قطرات الماء تقطر من جبينه، ونظر في عينيه مباشرة. قال ببرود حاد:
-"أنا لو كنت أريد موتك... كنت تركتك في الزنزانة".

ارتجف فك "يازِن"، وكاد يندفع نحوه، لكن "لارين" وضعت يدها على صدره، تمنعه، وصوتها يرتجف بصرامة:
-"كفى! لا وقت للشك الآن... خلونا نفكر كيف نخرج من هذا المكان".

لكن داخلها لم يكن مطمئنًا. قلبها يخفق بجنون، فهي تخشى على "يازِن" من أن ينهكه الألم أكثر، وتخشى في الوقت نفسه من أن يكون "ميلاد" يخفي شيئًا مظلمًا حقًا.

مرت لحظات صامتة. أنفاسهم وحدها كانت تُسمع. ثم... جاء الصوت.

أول الأمر بدا كهمس بعيد، كأن الريح تئن في تجاويف الصخور. لكن شيئًا فشيئًا، اتضح أكثر... نحيب طويل، ممدود، كأنه صوت بكاء يُسحَب من جوف الأرض.

تجمدت "لارين" مكانها، عيناها اتسعتا رعبًا، ونظرت حولها:
-"شو... هذا؟"

"يازِن" انكمش للحظة، نظر نحو الظلام بشراسة متوترة، فيما عضلاته تتصلب رغم ألمه.

أما "ميلاد"، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة، ابتسامة باردة لا تعرف إن كانت سخرية أم اعترافًا بشيء مروّع. ثم قال بصوت منخفض، كأنه يتحدث إلى نفسه بقدر ما يحدثهم:
-"قلت لكم... هذا الوادي ما حد يجرؤ يدخل له. لأنهم يعتقدون... أنه مسكون".

الفصل الثامن والعشرون

النحيب عاد يتردّد، هذه المرة أوضح... كأنه يأتي من كل جانب، يذوب في الريح الباردة ويغرس أنيابه في أرواحهم. الجدران الصخرية العالية بدت كأنها تضيق عليهم أكثر فأكثر، وكأن الوادي نفسه يريد ابتلاعهم.

"لارين" التصقت بـ"يازِن" وهي ترتجف، يداها تمسك بذراعه المرهقة. أحست بحرارة جسده المضطربة، وبأنفاسه المتقطعة التي تفضح كم هو قريب من الانهيار. قلبها كان يتمزق، فهي ترى الجرح ينهشه والغيرة تلتهمه في الوقت نفسه.

"ميلاد" وقف ساكنًا، عيونه تتجول في العتمة وكأنه يعرف هذا المكان من قبل. لم يظهر عليه أثر خوف، بالعكس، بدا وكأنه يراقب شيئًا يعرف أنه سيأتي. قال بصوت منخفض:
-"هذا الوادي... مو أي مكان. كل اللي دخلوا فيه، ما عادوا خرجوا سالمين".

التفت "يازِن" نحوه بغضب متقد، عيناه المرهقتان تلمعان بتوتر:
-"ومن وين تعرف كل هالحكايات؟ من يوم عرفتك وأنا أشوفك واقف كأنك... كأنك صاحب الأرض هون"!

مدّ يده المرتجفة يجذب "لارين" نحوه أكثر، وكأن الخوف من فقدانها يوجعه أكثر من جرحه. صوته انفجر، فيه غيرة مكشوفة وحزن دفين:

-"إياك... إياك تلمسها أو تقرب منها"!

"لارين" جمدت للحظة، عيناها بين "يازِن" المنهك الذي يكاد يسقط بين ذراعيها و"ميلاد" الغامض الذي لم يتزحزح خطوة. كانت تشعر أن النار تشتعل بينهما وهي محاصرة في المنتصف.

ابتسامة باردة ارتسمت على فم "ميلاد"، قال بسخرية خافتة:

-"أنت ما قدرت تحمي نفسك... فكيف بدك تحميها؟"

الكلمات ضربت صدر "يازِن" بقوة أشد من الجرحِ نفسه، عيناه احمرتا وهو يحاول أن يتقدم، لكن جسده خانه، قدماه تترنحان وكاد يسقط لولا أن "لارين" أمسكت به في اللحظة الأخيرة.

صرخت وهي تبكي من شدة الضغط:

-"كفى! أنتم الاثنين! اسمعوا... الصوت... عم يقرب".

وساد الصمت. ثم جاء النحيب من جديد، لكن هذه المرة لم يكن نحيبًا فقط... كان معه خربشة، كأن أظافر طويلة تخدش الصخور من فوقهم.

رعشة باردة اجتاحت أجسادهم. "لارين" شهقت وهي تلصق نفسها أكثر بيازِن، بينما "ميلاد" رفع رأسه وحدّق في الظلام، وعيناه تلمعان بغموض:

-"ما في مفر... اللي بالوادي عرفوا أننا هون".

الفهرس